نوايا المستعمرين تجاة الدول الفقيرة

د. عوض إبراهيم عوض

كوالا لمبور 1997م

نوايا المستعمرين تجاه الدول الفقيرة

دار المؤتمن للنشر والطباعة والتأليف

1997م

فهرسة مكتبة المؤتمن، بدار الإحسان

نوايا المستعمرين تجاه الإسلام

د. عوض إبراهيم عوض

138 ص؛ 17×24 سم

© عوض إبراهيم عوض

مايو 1997م

جميعُ الحقوق محفوظة

نوايا المستعمرين
تجاه الدول الفقيرة

◆◆◆

د. عوض إبراهيم عوض

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ

شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ

لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً

وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً

وَلا حَـيَاةً

وَلا نُشُوراً.

صدَقَ اللهُ العظيم

﴿الفهرست﴾

الموضوع **الصفحة**

الآية الكريمة.....................................3
الفهرست...4
إهداء...6
استهلال..7

الفصل الأول (طبيعة النوايا تجاه الإسلام) 10
ما هي حقيقة النوايا الاستعمارية؟........................18
الفصل الثاني (دوافع الاستعمار ومحاوره) 29
المحور السياسي.......................................31
المحور الفكري...38
المحور الاقتصادي.....................................51
الفصل الثالث (أساليب التغلغل في الدول) 56
أ/ الاجتياح المسلح.....................................58
ب/ الهجرة الاستيطانية.................................60
ج/ الاندماج الكامل.....................................66
د/ التبعية السياسية.....................................68

الفصل الرابع (الاستعمار الحديث) 79
شكل الهيمنة بعد أزمة الخليج...........................96
رؤية الغرب للمسلمين.................................103
الفصل الثالث (الاستعمار ومفهوم السيادة)..............106
فلسفة حقوق الإنسان..................................115
فكرة القومية العربية.................................118
من رموز الاستقلال...................................123
الخاتمة...127
المراجع والمصادر 130

إهداء:

إلى كل طلبة العلم في وطننا الإسلامي الكبير وهم يكافحون من أجل تأصيل المعرفة وسبر أغوار الحقيقة. إلى كل الذين اتقوا وآمنوا وأحسنوا واللهُ يحب المحسنين. إلى الذين عركهم كبرياءُ الآخرين المُسمى بالعولمة زوراً وبهتاناً أو ضللهم ما يُسمى بصراع الحضارات. إلى الذين أبت نفوسهم الأبية إلا أن يُثبِتُوا وجودهم في متاهات الحياة الحاضرة التي استأسدت فيه قوى الشر لتُطفئ نور اللهِ ويأبى اللهُ إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون. إلى كل من كان في قلبه ذرةُ إيمان بأن هذا الكونَ لم يُخْلَقْ عَبَثاً وإنما لحكمةٍ كانَ بَعْضٌ منها أن نُدركَ ذاتَ اللهِ سبحانه وتعالى ونُجلها ونقدرها لأننا إليها راجعون. إلى كل هؤلاء وأولئك أهدي هذه السطور مع أسمَى تحياتي ودعائي بالخير.

د. عوض إبراهيم عوض

بسم الله الرحمن الرحيم

❄❄❄❄❄

استهلال:

الحمدُ للهِ الذي أَبْدَعَ الأكوانَ، وأُجْرى الأنهارَ، ورفعَ السماءَ بلا عَمَدٍ نراها، وخلق السمعَ والأبصار للإنسان الذي صارَ بفَضْلِها أفضلَ الكائِناتِ. والحَمدُ للهِ الذي حبانا من فضله أساليب التواصل الذي أصبَحَ سِمَةً للإنسانِ يُثيبُه اللهُ عليه ويعاقِبُه إن قطعَ ما بينه وبين الآخرين.

ومن عظمتِهِ أن جعل على رأس هذا التواصل تواصلنا مع الذات العلية ذاتِ الحق عزَّ وجل. ثم من خلال حقيقة هذا الوجود العظيم وغايات إنشائنا ﴿**وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا**﴾ خلق لنا كل أسباب الاتصال على أرقى مستوياتها من جهازٍ للنطق يتكون من الفم وما حواه والقفص الصدري وما حواه والخيشوم وما اتصلَ به كي تعمل جميعاً في تناسقٍ وتناغم بديع نصنعُ منه أصواتاً هي سر الجمال الأزلي في تفاهمنا وتعارفنا وتآلفنا مع بعضنا البعض.

ثم غرس داخل كلٍ منا عقلاً يُنظمُ الفكرة، ويبلور الرأيَ، ويُفصحُ عما في نفوسنا وقتما نريد. ومن خلاله نمت العلاقات بين الأفراد، وتطورت لتصبح علاقاتٍ بين الشعوب، ثم تواصلاً بين

الأمم، ثم ترابطاً بين الأجيال المتعاقبة. وفي كل هذا لم يسعفنا إلا ما غرسه اللهُ سبحانه وتعالى فينا من فكرٍ ومَزاجٍ ورأيٍ وطموحٍ في الأفضل هُو معطياتُ الاتصال الإنساني. ومن خلال ذلك أمكننا أن نصنع قنواتِ الاتصال التي حوت في ثناياها أسباب الحياه، وجعلتنا نتقرب لبعضنا حتى أصبح العالم أسرةً واحدةً مترابطة الأطراف بفضل الله ثم التطور البشري الذي انبنى على قنوات الاتصال.

ولما كان الأصل الحقيقي لكل هذا النماء هو اللهُ سبحانه وتعالى كان لا بد من رد الأمور إلى أصولها ومعرفة العلاقة الواشجة بين الذات العلية وذات الإنسان من خلال علم الاتصال. ومن هنا يجيء هذا الكتاب كمحاولة لتأصيل علم الاتصال. وزوايا تأصيل هذا العلم متعددة ومتشعبة ولكن لا بد من محاولة سبر أغوارها كلٌ في مجاله. ونشكر للذين جعلوا من هذا الأمر مَنهجاً علمياً يُدَرَّسُ لطلبة المعرفة.

ولما كان الأمر قد أصبح واقعاً من خلال منهجه ومحتواهُ الذي نما على وسائد التأصيل يجيء هذا الكتاب كقطرةٍ صغيرة في مُحيطٍ متلاطمِ الأمواج عله يُفيدُ المهتمين. والشكر بعد الله لطلبتي بقسم ماجستير الإعلام بمعهد إسلام المعرفة الذين لولا جهدهم

ومثابرتهم ومشاركتهم الفاعلة بالتمحيص والبحث والكتابة والسؤال والنقاش المستفيض لما برز هذا العمل. وأقول لهم إن هذه بضاعتكم رُدت إليكم علها تُصبحُ زاداً لمن يريد أن يلج في العالم الواسع عالم أصول الفكر الاتصالي الإسلامي. ولا يعدو هذا الكتابُ أن يكون مجرد خواطر لمن آمنوا باللهِ عشقاً للحقيقة من بين ضباب الجهالات الكثيفة التي عتمت ضلالاتُها سماء الكارهين لإتمامِ نور الله.

❖❖❖

الفصل الأول

❄❄❄❄❄

طبيعة النوايا الاستعمارية

الفصل الأول

طبيعة النوايا الاستعمارية

❄❄❄❄❄

في مؤتمر قادة منظمة المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالعاصمة الماليزية كوالا لمبور في الفترة من 27 إلى 30 يونيو عام 2000م برزت من خلال الحديث عن التسلح النووي العديدُ من المخاوف الحقيقية حول مستقبل الإسلام في ظل النظام العالمي الجديد.

وأشار عددٌ من المحاورين الذين تقاطروا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي وبعض الدول غير الإسلامية التي دُعيت للمؤتمر إلى حقائق مذهلة وخطيرة للغاية عايشتها الأمة الإسلامية والدويلات الفقيرة طوال مسيرتها مع المستعمرين.

كما أشار العديدون إلى المخاطر التي ترتبت على تلك الحقب الاستعمارية وما أفرزته على بلاد العالم الثالث التي ينتظرها الكثيرُ من التضعضع والتمزق والانفلات إذا هي لم تُدرك خطورة الموقف الحاضر الذي ظهر من خلال أطروحات النظام العالمي الجديد وتتأهب له. ولما كان المؤلفُ أحد المراقبين لتلك الجلسات

فقد أحسَّ كغيره من الحاضرين بخطورة الموقف وجسامةِ المسئوليةِ الملقاة على عاتق أبناء الأمة في توضيح الحقائق ووضع الأصبع على مكامن الداء حتى يتم استنباطُ الحلول المناسبة لهذه المأساة قبل فوات الأوان. ولذلك كانت مادة هذا الكتاب قد تراءت من خلال سطور المخاوف خصوصاً عندما نظرتُ ككاتب إلى التاريخ القريب الذي طُبخت فيه المؤامرة ضدَّ الدول الفقيرة وبينها بالطبع البلاد العربية والبلاد الإسلامية.

ورأيتُ أن أتناول هذا الأمر من زاوية ما أحدثه الغربيون من خلال الرؤية الاستعمارية، لأنَّ هذا هو الأساس الذي لا نستطيعُ معه تدارك المستقبل المظلم إلا إذا وقفنا على حقيقته ثم وظفناها للبحث عن المخارجِ من هذا المأزق الخطير الذي نعيشُ فيه كأمةٍ مسلمة.

ولذلك يجيء هذا الكتاب الذي أحسبه مجرد بدايةٍ في طريقٍ طويل لا بد أن تتبعه كتاباتٌ كثيرةِ عن واقعِنا كمستضعفين في العالم الذي نعيش به اليوم. ثم لا بد لنا أن نُشكل رؤيتنا المستقبلية كفقراء أو كمسلمين أو أفارقة أو عرب لوضع أنفسنا في مكانها الصحيح وسط خارطة العالم خلال الحقب القادمة. ولعلَّ المرارةَ تظهرُ بشدة عندما نسمعُ ادِّعاء القوى الاستعمارية في كثير

مـن المحافـل الدوليـة بأنهـا قـدمت خدمـةً تاريخيـةً لشـعوبنا عنـدما استعمرتها خلال القرنين الماضيين. وادَّعت أنها حققت لنا كثيراً من المكاسب التي ما كان لها أن تتحقق لنا بدون مساعدة هذه القوى الاسـتعمارية. وهـذه المكاسـب المزعومـة تتمثـل فـي سـبعة أشـياء رئيسية، هي:

[1] تكوين طبقة عاملة في الدول المُسْتَعْمَرَة.
[2] الاستفادة من الخبرات الغربية في التطور التقني.
[3] تغيير المجتمعات الرعوية إلى مجتمعات منتجة اقتصادياً.
[4] نقل التجربة الليبرالية لتكونَ بديلاً عن النظم المتخلفة.
[6] فتح قنواتٍ للتطور الفكري لدى هذه الشعوب.
[7] ربط هذه الشعوب بركب الحضارة الغربية.

وإذا نظرنا إلى هذه المكاسب المُدَّعاة، والتي ظلت تتحدث عنها المجتمعات الأوروبية في تبريرها لاستغلال البلاد الإسلامية عبر التاريخ نجد أنها لم تكن في واقع الأمر إلا ادعاءات لا يدعمها الواقع بأي حالٍ من الأحوال. حيث إنَّ خلق الدول الاستعمارية لطبقة عاملة في المستعمرات لم يكن إلا بغرض

استغلال الطاقات البشرية الرخيصة لتنفيذ المشاريع الاستعمارية لخدمة خزائن الامبراطوريات الأوربية. والدليل على ذلك أنَّ أولئكَ المستعمرين لم يُطوروا ملكات السكان الفنية ولا مهاراتهم إلا بالقدر الذي احتاجوا إليه في تسيير دولاب العمل اليومي والذي انصبَّ كله في مصلحة الدول المستعْمِرة وكان بميزانٍ دقيقٍ ومدروسٍ بكل العناية. وكان اضطهادُ العمال في الحقول والمشاريع الزراعية والمناجم أمراً واضحاً للعيان في جميع المستعمرات الإسلامية وغيرها.

كما أنَّ نقل التكنولوجيا إلى هذه الدول لم يكن إلا فريةً وأكذوبةً لم تنطلِ على أحد. حيثُ ظلتْ معظمُ بقاع العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا خاضعةً لسيطرة الغرب طوالَ عقودٍ من الزمان، ثم خرج المستعمرون منها بنهايات عقد الستينيات من القرن العشرين ولم يبرز ذلك التطور التكنولوجي الذي تدَّعيه دول الغرب.

أما في مجال نقل التجربة الليبرالية إلى الدول، فيمكن القول إنَّ بعض الدول قد أخذت بهذه التجربة إما قسراً وإما رغبةً في التغيير والتجريب. ولكن لم تكن النتيجة دائماً في صالح الادعاء الاستعماري. حيث إنَّ نشأة هذه الأنظمة الليبرالية في العالم الإسلامي قد سبقت موجة التدخلات الأوروبية في المنطقة بفترةٍ

وجيزة. حيثُ عرفت مصر الليبرالية منذُ أيام الخديوي إسماعيل باشا الذي أنشأ أول مجلسٍ للشورى والنواب في 25 نوفمبر من عام 1866م. ثم قامت في سوريا انتخاباتُ المؤتمر السوري العام الذي بدأت أعماله في عام 1919م. وقد أنشأه **(الأمير فيصل)** بغرض تكريس حكمه في البلاد.

إلا أنَّ المؤتمر سرعان ما تنكر للأمير الفيصل، ودعا إلى قيام نظامٍ برلمانيٍ دُستوريٍ يرعى شؤون البلاد والأمة. وكادت الأزمة أن تُطيح بالفيصل نفسه لولا اندلاع الحرب مع فرنسا، مما أدى لشللٍ كاملٍ في كل المؤسسات الدستورية، وفي نهاية المطاف إلى سقوط الدولة برمتها.

وفي السودان أيضاً تبنى الوطنيون النظام الليبرالي بمجرد إعلان الاستقلال في الأول من يناير 1956م، حيثُ اعتبره الدستورُ أساساً للديموقراطية النيابية. وقد بدأت الممارسة قُبيل خروج الإنجليز كجزءٍ من اجراءات جلاء المستعمرين وانتقال السلطة للوطنيين.

وقامت على ذلك الأساس أولُ انتخاباتٍ تكونت بموجبها أول حكومة وطنيةٍ انتقالية بزعامة الرئيس إسماعيل الأزهري في عام 1954م. وتكونت وفقاً لذلك أول جمعية تأسيسية وطنية قامت

بدور الجهاز التشريعي الذي هو بمثابة البرلمان. ثم جرت الانتخابات الثانية بعد خروج الإنجليز وجاءت بحكومة السيد عبد الله خليل التي دعمها حزب الأمة الذي كانت قاعدته الأساسية من طائفة الأنصار الدينية التي ورثت الفكر المهدوي للإمام **(محمد أحمد المهدي)**.

ولم يستمر الوضع الليبرالي طويلاً، حيثُ سرعان ما خاض النظام في الفوضى التي رمى كثيرٌ من السودانيين باللوم فيها على النظام الليبرالي القائم على ديموقراطية وست منستر البريطانية.

ولذلك سرعانَ ما أطاح الفريق إبراهيم عبود بالحكومة الحزبية في 17 نوفمبر 1958م بعد سريان الكثير من الشائعات التي قالت إنَّ رئيس الوزراء السيد **(عبد الله خليل)** هو الذي أوعز للمؤسسة العسكرية أن تستولي عليها في ذلك الانقلاب. وبعد ذلك عادت الليبرالية إلى حكم البلاد بعد ثورة شعبية بيضاء في أكتوبر 1964م.

وسرعان ما انفرط عقد النظام وظهرت أخطاء الممارسات السياسية. فانهارت الدولة من جديد وتسلمتها المؤسسة العسكرية في 25 مايو عام 1969م. ثم عادت الليبرالية مرةً ثالثة في أبريل 1985م، لتصل إلى نفس النتيجة باستيلاء المؤسسة العسكرية

عليها في 30 يونيو 1989م. كان الشعور بالإحباط قوياً، حيثُ بدا التذمرُ واضحاً لدى الساسة والعسكريين على حد سواء، حتى ظهر ما سُمِّيَ بمذكرةِ القوات المسلحة لرئيس الوزراء السيد **(الصادق المهدي)**. ومرةً أخرى تولت المؤسسة العسكرية أمر النظام، وقضت على الليبرالية الثالثة في السودان.

ومن خلال هذا النموذج يمكننا أن نضعَ خطوطاً تحت الادعاء الاستعماري بنقل التجربة الديموقراطية القائمة على الأساس الليبرالي للمستعمرات. حيثُ واكب تجربةَ الغرب كثيرٌ من النجاح عندما طُبقت في البلاد الأوربية تحت الظروف التي يعلمها الجميع، ولكن هل نجحت التجربة بنفس القدر في البلاد الإسلامية التي أخذنا السودانَ نموذجاً لها؟

ربما تحتاج الإجابةُ إلى كثيرٍ من إمعان النظر في التجارب المختلفة للبلاد الإسلامية، ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ ذلك الادِّعاء قد ظلَّ مثارَ لغطٍ طويل لدى المحللين لتطور الأمور في البلاد الإسلامية، وكانت المحصلة في أحسن فروضها أنَّ ادِّعاءَ نقل الديموقراطية إلى العالم الإسلامي ووضعها مكان الأنظمة الرجعية السابقة ادِّعاءٌ جانبه الصواب، ولم يكن صحيحاً لا في جانبه التاريخي ولا في جانبه الواقعي.

وتبقى بقية المكاسب المزعومة التي أشرنا إليها في هذه المقدمة موضوعاً للدراسة والتمحيص بالحقائق والأرقام والشواهد من خلال الفصول التالية لهذا الكتاب. ولكن يبقى السؤالُ الذي ظلَّ يطرح نفسه بإلحاحٍ على مدار السنين، وهو لماذا ظلَّ المسلمونَ خلال هذه الحقب هدفاً لهيمنة الدول الاستعمارية حتى اندفعت بكلياتها للسيطرة عليهم والاستماتة في كسبهم إلى جانبها؟

ستكونُ الإجابة عن هذا السؤال من خلال استقراء مسار الحركات الاستعمارية عبر التاريخ وسيطرتها على البلاد الإسلامية خلال الحقب المختلفة. ثم نستعرض بعض الشواهد على وقوع الأمة بأسرها فريسةً لهذه الأطماع. ثم نضعُ تصوراً للخروج من هذا المأزق التاريخي الذي ترك آثاره الواضحة على أجيالنا الحاضرة وأثَّرَ على العقيدةِ نفسها في نهاية الأمر.

ما هي حقيقة النوايا الاستعمارية؟

عبر تاريخها الطويل تعرضت الأمة الإسلامية لأبشع أنواع الاستعمار الذي قادها لكثير من الأسى الذي يعيشه كثيرٌ من أبنائها الآن. والاستعمار له معنيان مختلفان تماماً، حيثُ تَعارف الناسُ على مُصطلحه الأول من خلال المعاجم التي أوضحت أنَّ

مدلوله اللغوي هو استصلاح وتعمير الأراضي والأماكن المهملة، حيث يقول الإنسانُ استعمرتُ أرضي بعد اليبابِ والجفاف، أي زرعتُ أرضي الجرداء وجعلتها خضراء وأعدتُ إليها الحياة بعد الموت. وهذا هو المعنى الإيجابي. إلا أنَّ مدلوله الثاني كمصطلحٍ سياسي فهو مغايرٌ ومُعاكِسٌ تماماً لهذا المدلول، لأنه يعني في المعاجم السياسية توسع الدول ذات النفوذ الاستكباري فيما وراء حدودها القومية المشروعة على حساب شُعوبٍ أخرى هي في أغلب الأحيان مستضعفةٌ مادياً وعسكرياً [1].

والاستعمار بهذا المفهوم هو مناط حديثنا لأنه تركَ آثاراً سلبيةً عديدة على الأمة الإسلامية سواءٌ منها الذين اكتووا بنيران اغتصاب الأوطان في الماضي أو الذين اقتنعت زعاماتُهم الحاضرة بأطروحات دول الاستكبار الجديدة من خلال ما سُميَ بالنظام العالمي الجديد New World Order.

لقد اكتوت البلادُ الإسلاميةُ بنيران الاستعمار منذ زمان بعيد، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية ذات النفوذ العسكري والاقتصادي والسياسي أكبر دولة استعمارية عرفها العالم في

[1] البرت الريحاني ومجموعة من الأساتذة، (1955م)، الموسوعة العربية، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، صفحة 138.

التاريخ القديم والحديث. فقد استولى الرومان على أراضٍ واسعةٍ من بلاد المسلمين في شمال أفريقيا والشرق الأدنى بعد أن أخضعوا عدداً من الدويلات الأوربية لنفوذهم.

واقتحمت الجيوش الرومانية هذه البلاد بأعداد كبيرة مخلفةً وراءها آثاراً سلبيةً جسيمة أضرت بالسلوك البشري في هذه الأمصار المسلمة التي بَنَتْ موروثاتها وعاداتها وتقاليدها على أساسِ الدين. فتمكن الرومان من طمسِ كثيرٍ من هذه الموروثات والتقاليد قبل أن يتمكن الوطنيون من صدهم وإخراجهم طوعاً أو كرهاً من أراضيهم.

وكانت المرحلة الثانية من استعمار بلاد المسلمين قد بدأت في أُخريات القرن الخامس عشر عندما انطلقت حركات الاستكشاف البحرية التي كانت تهدف إلى الوصول إلى الهند وبلاد الشرق وجنوب القارة الأفريقية.

فبعد أن اكتشف كولمبس الدنيا الجديدة في النصف الغربي للكرة الأرضية سار البرتغاليون عبر المحيط الأطلسي إلى أن وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح. ثم بعد ذلك واصلوا تقدمهم عبره حتى وصلوا إلى الهند. حيث بدأت مرحلة جديدة في عمر البشرية اتسمت بخروج عدد من دول أوربا من إطارها الجغرافي بحثاً عن

أراضٍ جديدة تساعدها في جلب الموارد الاقتصادية والتجارية[2] وتفرض عليها نفوذها العسكري والسياسي والفكري. ووفقاً لذلك استولت هولندا على جزر الهند الغربية، وأطلقت يدها في جنوب القارة الأفريقية.

ولما شعرت بأنَّ الأمر قد استتبَّ لها في هاتين المنطقتين استجلبت عدداً كبيراً من الملايويين الذين كانوا يعيشون في بلاد الملايو الآسيوية الممتدة عبر الأرخبيل الملايوي والجزر الإندونيسية وجزر الهند الغربية لكي يُصبحوا فلاحين وعمالاً في مناجم المستعمرات التي احتلتها في جنوب القارة الأفريقية خصوصاً في منطقة كاب تاون Cap Town وروديسيا [3].

وبهذا حققت هولندا مأرباً طالما حلمت به عبر القرون وهو أن تذل هؤلاء المسلمين وتُسخرهم لخدمة مصالحها في دويلات بعيدةٍ عن حدودها الجغرافية وبعيدة عن بلاد المسلمين أنفسهم وذات طبيعةٍ مغايرة تماماً لطبيعة بلدانهم. وتوجهت إنجلترا إلى شرق وجنوب شرق القارة الآسيوية قاصدة في بداية حركتها بلاد

---

[2] هربرت جورج ويلز (1967م)، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، صفحات 49–60.

[3] عالم المعرفة، (1997م)، المجلد الثالث، بيروت، لبنان، صفحة 95.

الهند، ثم توجهت بأساطيلها غرباً إلى الأراضي الجديدة التي تقطنها مجموعات الهنود الحمر في أواسط وغرب وجنوب أمريكا الشمالية. ولم تكن هولندا وبريطانيا وفرنسا هي الدول الوحيدة التي طمعت في التوسع داخل الدنيا الجديدة بل تسابقت معها في ذلك المضمار كلٌ من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال.

ثم جاءت ألمانيا التي أُدخلت قسراً في حلبة هذا السباق المحموم عندما أُعطيت مساحاتٍ شاسعة من قارة أفريقيا كانت فائضاً من حاجة الدول الأوربية الأخرى. ففي عام 1878م لم تكن تمتلك شبراً واحداً من الأراضي وبعد عشرين عاماً فقط أصبحت مالكةً لمساحات شاسعة في شرق أفريقيا وغربها وجنوبها الغربي.

والعجيبُ في الأمر أنَّ معظم هذه المستعمرات ضمتها ألمانيا في عامٍ واحد عندما سيطرت على الكاميرون والتوجو في شهر يوليو عام 1884م، وبعد شهر واحد استولت على أفريقيا الجنوبية الشرقية ثم بعد أربعة أشهر استولت على غينيا الجديدة، وفي مايو 1885 استعمرت إقليم شرق أفريقيا الذي أطلق عليه اسم شرق أفريقيا الألماني.

وما أن انقضى العقد الثاني من ذلك النشاط حتى أصبحت ألمانيا ثالث قوةٍ في العالم من حيث حجم المستعمرات، ومساحة

الممتلكات، وعدد السكان، بل ومن حيث الموارد التي هيمنت عليها فيما وراء البحار. لا أن ذلك النعيم لم يدُم للألمان حيث وضع الحلفاءُ أيديهم على كل الممتلكات الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى 1914–1917م. وذلك عندما تبادلت إنجلترا وفرنسا في عام 1916م مذكرات تفاهم حول ضم المستعمرات الألمانية السابقة في القارة الأفريقية[4].

وصرَّح لورد بلفور في عام 1918م بقوله: «**إنَّ الله شاء لنا الاستيلاء على المستعمرات الألمانية**»، في حين قال المستر ولسون: «**يجب أن تؤخذ المستعمرات من ألمانيا لأنها تستخدمها كأداةٍ للاستغلال**». وهكذا أوقع ناهبٌ بناهب.

شعر العالم حينئذٍ بوجود خطر داهم تمثل في استيلاء الدول القوية على الدويلات الصغيرة التي لم تكن تقوى على الدفاع عن نفسها ولا تملك القدرة على صدِّ تلك الهجمات المتلاحقة عليها، بل ولا تجد من يُعينها في التصدي للمستعمرين. وما من شك أنَّ البلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا ذات الموقع الاستراتيجي قد أغرت

---

[4] روث فيرست، أفريقيا الجنوبية الغربية مستعمرة التفرقة العنصرية، بدون تاريخ، ترجمة عبد السلام شحاتة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، صفحة 58.

العديد من الدول الأوروبية التي كانت تبحث عن مواقع لها في قلب هاتين القارتين. ولذلك تعرضت هذه البلادُ إلى كثير من الهجمات خلال تلك المرحلة لاسيما بعد سقوط غرناطة الذي أعقبه تفكك الأندلس وانهيار الدولة الإسلامية في إسبانيا.

وكان أكثر التوسع جنوباً نحو القارة الأفريقية ذات الموارد البكر، ومنطقة المحيط الهادئ في الشرق الأقصى. حيثُ الذهب والفضة والمعادن النفيسة والفراء من المغريات المهمة للأوروبيين الذين غاصوا في البلاد الأفريقية التي دان معظمها بالإسلام. في حين كانت التوابل والمنتجات الزراعية والحرير سبباً أساسياً لتوجه الدول الاستعمارية صوب الشرق الأقصى الذي انخرط كثيرٌ من سكانه في دين الإسلام منذ قرونه الأولى.

وتوجهت المجموعةُ الثالثة نحو أمريكا الشمالية لأسباب تعلقت في معظمها بثروات تلك البلاد القصية [5]. واستغلت الدول الأوروبية كل المناطق الصالحة للزراعة والتعدين في المستعمرات. ومن ثمَّ نقلت منتجاتها عبر البحار إلى أوربا ثم إلى الأسواق التي انتشرت بعد ذلك في الدويلات المستعمرة نفسها بقارات العالم

[5] موجز التاريخ الأمريكي، (1990م)، النسخة العربية، إعداد وكالة الإعلام الأمريكية للولايات المتحدة، واشنطن، الفصل الخامس بعنوان الصراع الإقليمي، صفحات 72–88.

المختلفة. وكانت الدول الأوروبية لاسيما بريطانيا تحاول درء الفقر عن أبناء جلدتها داخل الإمبراطورية العظمى وخارجها. حيثُ فعلت المستحيل من أجل تسديد فواتير المعارك التي خاضتها بدءاً بحرب الاستقلال الأمريكية في عام 1775م وختاماً بالحروب التي خاضتها في بلاد القارة الأفريقية والسويس وفلسطين.

وكانت بريطانيا وجاراتها الأوربيات قد أنفقت من خلال وزارات المستعمرات أضعاف ما كان مقرراً لها أصلاً في ميزانية الاجتياح، وذلك بسبب المخاطر التي واجهها المبشرون والمحاربون القدامى في معظم بقاع أفريقيا والشرق الأقصى[6].

والتزمت وزاراتُ المستعمرات في كلٍ من بريطانيا وألمانيا وهولندا والبرتغال أن تُعوض تلك الخسائر من موارد المستعمرات نفسها. ولذلك كان استغلال موارد الدول واستنزافها وسيلةً أساسية لإثراء الخزائن وسداد الديون. ونتيجةً لكل ذلك اندلعت الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) بسبب الأطماع التوسعية وبسط السيطرة على أراضي الغير. ودارت رحى تلك الحرب بين الدول الحليفة **[بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة، روسيا، إيطاليا،**

---

[6] ألان مورهيد، (1969م)، النيل الأزرق، تعريب دكتور إبراهيم عباس أبو الريش، دار الثقافة بيروت ومكتبة النهضة السودانية الخرطوم.

اليابان، بلجيكا، صربيا، الجبل الأسود، اليونان، رومانيا والبرتغال] من جهة، ودول الوسط **[ألمانيا، النمسا، المجر، بلغاريا، والسلطنة العثمانية]** من جهة أخرى. وكانت فرنسا تطمع في استرداد إقليمي الألزاس واللورين والوصول إلى فحم الرور.

وكانت روسيا تطمع في السيطرة على البلغان والوصول إلى البحر الأبيض المتوسط. في حين كانت ألمانيا تُمني نفسها بالاستيلاء على كل دويلات الشرق الأوسط. وهكذا تلاقت أطماع الدول الأوروبية التي اقتسمت فيما بعد أفريقيا والصين وغيرها من الدول التي صارت مناطقَ نفوذٍ لها، واستفادت منها لاحقاً كأسواقٍ لمنتجاتها وموردٍ للعمالة الرخيصة.

ورغم أنَّ شرارة الحرب قد اشتعلت بالأحداث التي واكبت مقتل ولي عهد النمسا والمجر غفريلو برنسيب في سراييفو في الثامن والعشرين من يونيو عام 1914م[7] إلا أنَّ الواقعَ قد أكد أنَّ تلك الأطماع هي السبب الأساسي للحرب. ونتيجةً لذلك أعلنت النمسا الحرب على صربيا فور انتهاء الحادث. وتحركت روسيا لرد ألمانيا بإعلان الحرب عليها وعلى حليفتها فرنسا.

---

[7] نعوم شقير، (1971م)، تاريخ أوربا الحديث، وزارة التربية والتعليم السودانية، قسم المناهج والكتب، صفحات 64-83.

وفي الرابع من شهر أغسطس من نفس العام أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا. وبدا كأنَّ ألسنة اللهيب قد وصلت إلى كل أنحاء أوربا ثم جرت معها دول العالم الأُخرى من جرَّاء تلك الأطماعِ التي فجرها حادثٌ تافِهٌ وليس ذا بالٍ على الإطلاق. وفي أقصى الشرق كانت المعارك الضارية تغتلي بين مجموعة الدول الآسيوية عندما استولت اليابان وأستراليا ونيوزيلندا على الأملاك الألمانية في المحيط الهادئ Pacific Ocion.

ودخلت السلطنة العثمانية الحرب في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام 1914م[8] فشنت هجوماً عنيفاً على القفقاس، وحاولت مهاجمة قناة السويس الذي كان منطقةً استراتيجيةً مهمة للغاية للملاحة الدولية بإجماع كل القوى وكل الشعوب وكل الشركات التجارية العالمية التي وجدت فيها ملاذاً آمناً وطريقاً سالكاً لتجارتها.

ونتيجةً لذلك ظلَّت منطقة القنال محل نزاعٍ طويل استمر على مدى السنوات حتى جاءت معاهدة 1936م لتحسم مسألة بقاء القوات البريطانية على ضفتها بغرض الدفاع عنها ضدَّ أيِ غزوٍ محتمل لمدة عشرين عاماً لاحقة.

---

[8] المرجع السابق، صفحات 64–83.

ولعل هذه المسألة قد رمت بظلالها على كثير من بقاع العالم بحكم الأهمية الاستراتيجية لقناال السويس ليس لمصر وحدها وإنما لكل بلاد العالم التي وجدت فيه ملاذاً آمناً وطريقاً سالكاً وميسوراً ربط كل بلاد الغرب ببلاد الشرق. ةأسهم إسهاماً كبيراً في نقل البضائع والبشر عبر القارات منذ أن أصبح القنالُ واقعاً ملموساً لشعوب الأرض. ثم احتلت بريطانيا العراق، وهاجمت الدردنيل. فأنشأت اتصالاً مباشراً مع روسيا. وفي أفريقيا تمَّ للحلفاء الاستيلاء على جميع المستعمرات الألمانية بنهاية سبتمبر عام 1916م.

❖❖❖

الفصل الثاني

❄❄❄❄❄

دوافع الاستعمار ومحاوره

الفصل الثاني

دوافع الاستعمار ومحاوره

❄❄❄❄❄

كانت ملابسات اجتياح عدد من الدول مدعاةً لأن يقف العالمُ متأملاً في الدوافع والأسباب التي انطلقت منها هذه القوى للخروج من حدودها الجغرافية والتجوه نحو المستعمرات. وعند إعمالِ مقاييس المنطق والواقع ثبتَ أنَّ هناك بعض الدول الغربية كانت تستميت زوراً وبُهتاناً في دفاعها عن حقٍ مزعومٍ لها في بعض بقاع العالم خصوصاً في آسيا وأفريقيا.

وبعضُها قد احتمى بالمواثيق الدولية في الحفاظ على المستعمرات القائمة وكأنها جزءٌ حقيقي من كيان الدولة الجغرافي رغماً عن بُعد المسافات، واختلاف السحنات، وانقطاع الروابط الطبيعية التي لم تكن في يوم من الأيام ذات وجودٍ بين هذه الدول. وقد تركزت كل هذه الادعاءات التي انبنى عليها الاستعمار في ثلاثة محاور رئيسية هي: 1/ المحور السياسي، 2/ المحور الفكري، 3/ المحور الاقتصادي.

1/ المحور السياسي

لعلَّ من أهم ما عُنيت به الدول الاستعمارية هو المصلحة العسكرية والسياسية التي أولتها أكبر الأهمية. وقد تعددت وتباينت الأهداف السياسية التي حدت بكل دولة من هذه الدول إلى توسيع نفوذها ونشاطها الاستعماري. حيثُ استخدمت معظمُها العنف والغلظة مع أبناء المستعمرات المغلوبين على أمرهم حتى لا يحاولوا الفكاك من قبضتها الحديدية.

ولم تَكْتَفِ بعضُها كبريطانيا بإحكامِ تلك القبضة القوية على المستعمرات القائمة، بل زحفت أيضاً نحو بلادٍ أُخرى شعرت بضرورة الاستيلاء عليها بغرض تأمين موقفها وتثبيت مواقفها العسكرية.

ورغم كل ذلك الحرص إلا أنَّ بريطانيا قد فقدت في أُخريات القرن الثامن عشر أهمَّ مستعمراتها في أمريكا الشمالية بعد حرب الاستقلال التي خاضها القاطنون في تلك البقاع والتي ظهرت على أثرها دولة الولايات المتحدة الأمريكية كإحدى القوى الكبرى التي أثرت فيما بعد على واقع الأمة الإسلامية أكثر من تأثير القوى الاستعمارية القديمة. وتكالبت دول أوربا على العالم الإسلامي بشكل فظيع بعد ثمانينات القرن التاسع عشر، لأنَّ الخطط

المرسومةَ كانت أن تستأثر هذه الدول بتملك زِمَام السيادة بشكلٍ كامل في البلاد التي تستعمرها وتبسط نفوذها عليها. وذلك لتضمن التبعيةَ التامة لها كترسانةٍ بشريةٍ في الحروب وعُمقٍ استراتيجي في أيام السِلْم.

وكانت أولى الدول التي نفذت تلك الاستراتيجية السياسية هي فرنسا عندما احتلت تونس في عام 1881م. إلا أنَّ إيطاليا، ورغماً عن أنفِ الفرنسيين، احتفظت بالأغلبية بين الأوروبيين في تونس لأسباب عديدة كان على رأسها دخول الإيطاليين بأعداد كبيرة ومتوالية في الأراضي التونسية قبل احتلال الفرنسيين لها.

ورغم ذلك فقد أصدرت فرنسا مرسوماً في عام 1882م قضى ببسط السيادة على الأراضي البور في تونس وضمها لملكية الدولة وتوزيعها على المستوطنين الفرنسيين [9].

وكانت البلادُ الإسلامية في شمال شرق أفريقيا قد شهدت هي الأخرى صراعاً استعمارياً شرساً بغرض تضارب مصالح المستعمرين السياسية فيها لمواقعها الاستراتيجية. فقد تنازلت تركيا عن مستعمرة إرتريا لمصر في عام 1866م بعد احتلال إنجلترا

---

[9] عبد الخالق عبد الله (1989م)، العالم المعاصر والصراعات الدولية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفحة 96.

لمصر. وانتهزت إيطاليا موقف انسحاب القوات التركية من السودان على أثر الثورة المهدية فأرسلت جنودها واحتلت مُصَوَّعْ في عام 1885م، وأخرجت منها الحامية العسكرية المصرية الوحيدة التي كانت قد أقيمت هناك. فما كان من إيطاليا إلا أن ضمت إليها إريتريا في نفس العام قُبيل أن تلتئم جراح المواطنين الذين عانوا أقسى ويلات الاستعمار.

ثم جاءت القوات البريطانية مرةً ثانية واحتلت البلاد في الفترة ما بين عامي 1941-1952م. ثم بعد ذلك قررت هيئة الأمم المتحدة بناءً على توصية لجنة التحري ضمَّ إريتريا إلى دولة إثيوبيا في اتحادٍ فِدرالي ظلّ ساريَ المفعول طوال فترة الإمبراطور هيلاسيلاسي.

ورغم سريان ذلك الاتحاد طوال تلك الفترة إلا أنَّ الصراعات والحروب الأهلية قد استمرت في المنطقة حتى نالت إريتريا استقلالها بموجب الاستفتاء الذي أعقب قيام الثورة الإثيوبية التي أطاحت بحكم الرئيس الإثيوبي الأسبق منقستو هايلي مريام في مطلع عقد التسعينات من القرن العشرين المنصرم.

ولم يقف أمر الاستعمار عند ذلك الحد بل ظهرت آثاره السلبية بشكلٍ أكثر فظاعةً على المسلمين عندما احتلت إيطاليا ليبيا

في عام 1911م[10]. وأصدرت بعد ذلك بثلاث سنوات أي في عام 1914م مرسوماً خاصاً بحرمان الأهالي المسلمين عن التمتع بدور العبادة وإخراجهم حتى من مساكنهم وأراضيهم الزراعية التي آلت بموجب ذلك المرسوم للمستعمرين، وأصبحُ أهلها الأصليون عبيداً فيها ليس إلا إن أرادوا أن يعيشوا.

كان ذلك المرسوم قد نصَّ على السماح للسلطات ببسط سيادتها على الأراضي الأميرية ومنحِها لأي إيطالي يرغبُ في استثمارها. وبدأت حينئذ المقاومة الليبية المنظمة ضدَّ هذا المرسوم الذي اعتبرته عائقاً للمسلم في ممارسة شعائره الدينية، وجائراً، ومُهيناً للإنسانِ بينَ أهله وعشيرته، وسالباً لسيادة الإنسانِ على بلاده [11].

وما كان من الإيطاليين إلا أن قمعوا كل محاولةٍ لرفض هذا الواقع المرير وساموا الناس عذاباً بدعوى أنهم بدأوا يتكتلون ضدَّ القانون وأنهم يتعاونون مع المقاومة المحظورة. وكانت النتيجة أن تمادت السلطات الإيطالية بنزع ملكية جميع الأراضي الزراعية

---

[10] صحيفة السودان الحديث، (12 يوليو 1993م)، دار السودان الحديث للطباعة والنشر، الخرطوم، صفحة 2.

[11] العالم العربي في القرن العشرين، (1997م)، سلسلة عالم المعرفة، صفحة 14.

من المواطنين الرافضين لهذا الوضع وضمتها للمساحات المتاحة للإيطاليين. وكانت الهيمنة الإيطالية على أراضي الليبيين وممتلكاتهم قد أغرت أبناء القارة الأوروبية من الاستعماريين، لأنَّ البلاد مازالت بكراً في ذلك الوقت وظلت تُعطي ثمارها في كل حين.

وكان مما ساعد على ذلك موقعها الجغرافي ومناخها الملائم لكل أنواع الاستثمار الطبيعي. كما كان قربها من إيطاليا قد جرَّ عليها كثيراً من الويلات بحكم أنَّ الإيطاليين لم يكونوا محتاجين لأكثر من ركوب البحر أياماً معدودات حتى يصلوا إلى شمال أفريقيا الذي كان أرضاً للأحلام لهم. ولذلك تمسك الإيطاليون باستعمارهم لليبيا رغم مقاومة الوطنيين التي كانت بمثابة الغصة في حلقهم طوالَ السنوات.

وكان أصعب ما واجهه الطليانُ هو بروز الدين كأحد عناصر المقاومة خصوصاً وأنَّ صدى تعاليم المناضل الفقيه **(عمر المختار)** قد كانت نبراساً للوطنيين الذين ساروا على نهجه بغرض تحرير العقيدة نفسها من محاولات الطمس والتهميش التي لجأ إليها الطليانُ في ضربهم للإسلام. وحينئذٍ لم يكن أمام المستعمرين غير القضاء على تلك المقاومة بأشد أنواع التنكيل لكي يخلو لهم الجو

لبسط سيطرتهم على المزيدِ من البقاع بعيداً عن تأثير حمية العقيدة الإسلامية أو النضال من أجل المقدسات. ولم يكن القضاء على تلك المقاومة بالأمر الهين بعد ضِيقِ الوطنيين بإذلالِ مُقدساتهم، خصوصاً عندما تفتحت عقول الشباب في خلاوى القرآن الكريم والمساجد والمدارس والمحافل الوطنية على ما كان يُحاكُ ضدَّ الإسلامِ والمسلمين.

ولما لم يُجدِ ذلك الأسلوبُ القمعي لجأت إيطاليا إلى أسلوبٍ آخر هو تشجيع الاستيطان الأوروبي في البلاد بغرض تمكين البيض وفرضهم كأمرٍ واقع. وهذا هو الأسلوبُ الوحيدُ الذي تستطيعُ من خلاله فرض السلوك الأوربي، والديانة المسيحية، والقضاء على الموروث الإسلامي في البلاد.

وتضاعف حجمُ الهجرات الاستيطانية التي بلغت ذروتها في عام 1932م. حيثُ كانت كلها من المسيحيين، ومصحوبةً بالمبشرين الذين كان همهم تنصير الشباب المسلم وإخراجه من ربقة الإيمان والتمسك بالإسلام.

بلغ عدد المهاجرين المسيحيين من إيطاليا إلى ليبيا 20.000 مهاجر سنوياً. واستمرت تلك الهجرة المتزايدة حتى بلغ العدد الكلي للمستوطنين أكثر من مائة ألف عام 1939م في حين

تناقصَ عددُ المسلمين بسبب الطرد والظروف الصحية المتردية والفقر والجوع والمرض. وفي عام 1951م استقلت ليبيا سياسياً بدعم من الإنجليز الذين سعوا جاهدين لتسليم السلطة للسنوسيين. وكان 80 % من السكان حينئذٍ يعملون بالزراعة والرعي[12].

بعد ذلك ظهر النفطُ في عام 1955م فتحولت الدولةُ سريعاً إلى دولةٍ مُصدرةٍ للنفط، وسرعانَ ما سالَ لعابُ المستعمرين الذين خرجوا تواً لهذه الثروة الجديدة فبسطوا أياديهم من جديد لاحتواء الأمر بالأساليب الدبلوماسية والمراوغات السياسية حتى تمكنوا من التأثير على الحكومة الليبية مما جعلها مغلولة الأيدي في تطوير ذاتها من عائدات ثروتها النفطية.

ولما كانت سيطرة السنوسيين قويةً على البلاد في تلك الفترة فقد كان ذلك سنداً للإيطاليين وغيرهم من البلاد الأوربية التي أسهمت في تسليمهم السلطة بعد الاستقلال كمكافأةٍ لهم على عدم انخراطهم في المقاومة التي استشرت في عقد الثلاثينيات وما بعده. وكانت جحافل المهاجرين من أوربا قد تزايدت في تلك الحقبة التي تفاقمت فيها أزمة المسيحية على المستوى العَقَدي وأزمة تمويل

---

[12] أنظر حقائق أساسية عن الأمم المتحدة، (1972م)، الترجمة العربية (الأمم المتحدة في ميدان التقدم الاقتصادي والاجتماعي)، صفحات 57-61.

المشاريع على المستوى الاقتصادي. حيثُ كانت أوربا أكثر تأثراً بتلك الأزمة بحكم تفاقم آثار الاضطهاد الديني الذي أشرنا إليه آنفاً. فتوجه البعضُ إلى قارة أمريكا، في حين توجه البعضُ الآخر نحو أفريقيا التي يسهلُ استقطابها في نظر المستعمرين نحو أي ديانةٍ تُقادُ إليها [13].

2/ المحور الفكري

كان الاضطهاد الديني الذي ظهر في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي نتيجةً لتعسف سلطة الكنيسة والممارسات الاقطاعية التي كانت تُحاكُ باسم المسيحية سبباً في خروج المستعمرين من بلادهم والتوجه نحو المستعمرات.

وعندما ظهرت صكوكُ الغفران لدى رجال الكنائس، وجُعِلَ الولاءُ المطلق للزعامات الأرستقراطية معبراً إلى إرضاء يسوع المسيح وجوازاً إلى النعيم المقيم في الدار الأخرى تأثر أتباعُ المسيحيةِ سلباً عندما شعروا بتلك الأخاديع. وقد انعكس ذلك الأمر على جميعِ مرافق الحياة حتى مسيرة الفكر وحرية التعبير

---

[13] عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، (1993م)، حبال ودمى بداية العلاقات العربية الأمريكية، دار الأصالة، الخرطوم، صفحات 109–120.

والمساحات المتاحة لطرح الآراء والأفكار في المدن الأوربية. وتأثرت بذلك قنوات الاتصال التي أضرت بها تلك الممارساتُ الدينيةُ المتعسفة التي تبنتها الكنيسة، والتي لم تكن إلا انعكاساً لسلوك السلطات الأرستقراطية في تعاملها الاستبدادي مع أدوات الرأي ووسائل الإعلام على قلتها.

وبرزت نتيجةً لذلك النظريةُ السلطوية للاتصال Authoritarian Theory التي كانت أسوأ نموذجٍ للحرمان وكبت الحريات خلال تاريخ البشرية الطويل.

كانت وسائلُ الاتصال قنواتٍ لكبت الحريات، ومُحاباة السلطة، وتمجيدها، من خلال الدعاية المضللة والتمجيد الزائف. وقد ملأت تلك الأساليب صفحات الكتب والجرائد والمنشورات والرسائل الإخبارية التي كانت هي الوسائل المتاحة للإعلام في تلك المرحلة.

وانعكس ذلك الواقع التعسفي في سلوك العامة الذي سعى لإرضاء السلطات بشتى الأساليب. وعندما شعر الناسُ بشدة الوطء عليهم وتزايد الاضطهاد الاجتماعي والسياسي والفكري المتسربل بثياب الدين وعدم الخضوع لسلطة الكنيسة تمرد البعضُ بالخروج على سلطة الدولة والكنيسة على السواء. وأصبحَ ذلك دافعاً قوياً

للكثيرين منهم للتوجه نحو المستعمرات لا سيما وأنَّ المبشرين كانوا قد سبقوا الفاتحين إلى تلك البقاع النائية ومارسوا أسوأ الأساليب في استمالة المسلمين إلى جانب الكنيسة بل وإجبارهم في بعض الأحيان للخضوع لها والتخلي عن دينهم الإسلامي الذي ارتضوه وانخرطوا فيه طوعاً لا كرهاً.

وعندما انهزمت بعضُ هذه الدول مثل فرنسا على سبيل المثال في بدايات القرن الثامن عشر فقدت سيطرتها وهيمنتها على بعض البقاع التي حاولت احتواءها والمحافظة عليها مثل ما حدث في الهند وكندا اللتين ثارتا على القوات الفرنسية وخرجتا من إسار قبضتها الحديدية. وقد أثار هذا الموقف مخاوف الدول الأوروبية الأخرى خاصةً إنجلترا التي توجست خوفاً من فقدان تلك المستعمرات.

وفي السودان اشتعلت نيران الثورة ضد الوالي التركي الذي سام الناس عذاباً باسم الولاء الديني للإمبراطورية التي أحكمت قبضتها على مدى ستة عقود من الزمان. وخرجت تجوبُ شوارع المدن جحافل الثورة المهدية بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي الذي قاد جيوشه من منطقة الجزيرة أبا في أواسط البلاد وزحف بهم غرباً ليحارب القوات الاستعمارية التي قادتها بريطانيا ممثلةً في قائدها

هكس باشا Hex Pasha لنصرة الحكومة التركية المسيطرة على مقاليد الأمور في السودان. حيثُ كانت الإمبراطورية التركية قد احتلت السودان عام 1821م بدعوى نشر وتحكيم الإسلام في البلاد على أساس الوصاية التي ورثتها الدولة التركية من دولة الخلافة الإسلامية آنذاك. وبالطبع لم يكن الأمر على تلك الصورة، فلقد ظهرت النوايا التي قادت الخديوي محمد علي باشا [14] لغزو السودان.

وكانت الحملاتُ الاستكشافية التي قادها نجله إسماعيل باشا قُبيل الاحتلال دليلاً على الأطماع الاقتصادية والعسكرية وليس لها علاقة البتة بالفتوحات الإسلامية. وللتأكيد على ذلك فإنَّ محمد علي نفسه قد أشار في مذكراته إلى تلك الأطماع التي تمثلت في شيئين أولهما جلب الذهب من جبال بني شنقول التي كانت تروج الشائعات حول تكدسها بذلك المعدن النفيس، وثانيهما جلبُ العبيد من الأماكن الواقعة في أعالي نهر النيل [15]. حيث أراد محمد

---

[14] لم يكن محمد علي باشا تركياً وإنما كان ألبانياً حكم مصر باسم الإمبراطورية التركية. وقد استغل حمية الدين التي طرحتها الدولة العثمانية لتحقيق مآربه السياسية والعسكرية من خلال غزوه للسودان.

[15] أنظر حسن أحمد إبراهيم، (1991م)، رحلة محمد علي باشا إلى السودان، 15 أكتوبر 1838–14 مارس 1839م دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الثانية، صفحات 12–22.

علي أن يُجهز جيشه من أولئك النفر الأشداء ذوي البأس الذين اشتُهروا بقوة الشكيمة والصبر على القتال. والدليلُ على مخالفة النوايا لذلك الهدف المعلن هو أنَّ بلاد السودان كانت في الأصل تَدينُ بالإسلام الذي دخل إليها منذُ هجراتِ الصحابة الأوائل الذين نشروا الدين وحكَّموهُ بين الناس[16].

وكان لوجود الممالك والمشائخ الإسلامية مثل: الفونج، والفور، والعبدلاب، أثر كبير في إزكاء روح الدين بين الأهالي. الشيء الذي لم يكن محتاجاً لفتحٍ جديد يُدخل الناس في دين الإسلام أو ينتشلهم من كُفرٍ يعيشونه[17].

وكانت قاصمةُ الظهر هي تلك الممارسات المنافية للأخلاق والعقيدة التي مارسَها عُملاءُ محمد علي في السودان، وتمثلت في الاستبداد والنهب وتعذيب الأبرياء من السكان. فاستشرى الخوف من السلطان، وساد الجهلُ بين الناس، وانتشر

---

[16] كانت أولى هجرات المسلمين إلى بلاد الحبشة التي هي جزءٌ من بلاد السودان القديم، وقد أشار البروفيسور عبد الله الطيب في محاضرةٍ ألقاها في يوم 15 يناير عام 1983م بالميدان الشرقي لجامعة الخرطوم ونقلها تلفزيونُ السودان إلى أنَّ تلك الهجرة كانت لبلاد السودان الحاضرة والتي هي الحبشة وليست إلى إثيوبيا الحالية كما يوهم ظاهر النص.

[17] محمد صالح محي الدين، (1972م)، مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية 910-1236هـ / 1504-1821م، الدار السودانية الخرطوم ودار الفكر بيروت، صفحة 253.

الفقر والمرض. وقد قادت تلك الممارساتُ في نهاية المطاف محمد أحمد المهدي لتنظيم الجيوش وقيادة الحملات ضدَّ أولئك الغُزاة ومناصريهم من البريطانيين حتى تحقق الانتصار للثورةُ الإسلامية وحكمت البلاد بالشريعة الإسلامية بعد أن حررتها من السيطرة الاستعمارية عام 1885م.

وكان من آثار الثورة المهدية على دولة بريطانيا مقتل أحد أكبر قوادها العسكريين الجنرال غوردون باشا Gordon Pasha في سراي الحاكم العام بالخرطوم التي تحول اسمها لاحقاً للقصر الجمهوري، وقبله مقتل الجنرال هكس باشا Hex Pasha في غابة شيكان بإقليم كردفان الواقع في غرب البلاد [18].

أثار ذلك الأمرُ حفيظةَ الإنجليز الذين جهزوا أكبر حملةٍ عسكرية في تلك المرحلة لاحتلال السودان عام 1898م بقيادة لورد كتشنر Lord Kitshiner. وبذلك دخلَ السودان مرحلةً جديدة من الاستعمار سميت بفترة الحكم الثنائي، إشارةً إلى بريطانيا ومصر التي كانت تحكم رمزياً في حين استأثرت بريطانيا بالسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد. وفي هذه المرة كانت الحرب على الإسلام

---

[18] لمزيدٍ من التفاصيل أنظر عصمت حسن زلفو، (1976م)، شيكان تحليل عسكري لحملة الجنرال هكس، مطابع نيتكو، أبو ظبي.

أشد ضراوةً بدعوى أنَّ الحكومة البريطانية أرادت القضاء على المهدويين حتى لا يُفكروا في استعادة دولة المهدية. وكان من بين أساليب هذه الحرب على الدين منع الناس من قراءة راتب المهدي[19].

وكذلك صدر مرسومٌ بمنع التجمعات الدينية إلا لأداء الفرائض الظاهرية التي كانت تُقامُ تحتَ رقابة السلطة ثم تشجيع اللغة الإنجليزية ومحاربة اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، وإزكاء روح القبلية بدلاً من التكتل وراء الولاءات الدينية الموروثة والتي ظهرت من خلال الطرق الصوفية والطوائف الدينية والجمعيات الإسلامية المتعددة.

وحاول البريطانيون أيضاً تشكيك الناس في موروثاتهم العقدية عندما منعوا السودانيين من حفظ النصوص بدعوى أنَّ الحفظَ وسيلةٌ مُتخلفةٌ للتحصيل العلمي ويُعطلُ الذهن عن التفكير. ووفقاً لذلك ما كان من يريد حفظ أي مادة يجد تشجيعاً من البريطانيين سواء كانوا يمثلون الحكام أو المعلمين. وكانت الحقيقة

---

[19] راتب المهدي هو كتيبٌ صغير يحوي مجموعةً من الآيات القرآنية والأذكار والأدعية والأوراد التي يستخدمها الأنصار وهم أتباع الإمام محمد أحمد المهدي. ويقومون بقراءته بشكلٍ منتظم شأنهم شأن بقية المريدين من أتباع الطرق الصوفية المختلفة في السودان وغيره.

هي أنَّ الإنجليز إنما أرادوا بذلك أن يُوقفوا الأطفال والكبار على السواء من حفظ القرآن الكريم الذي يمثلُ خطراً على بقائهم بالبلاد[20]. ولم يكن الأمر سهلاً بالنسبة للدول الإسلامية التي دافع أبناؤها عن أوطانهم بكل ما أوتوا من قوة، إلا أنَّ الكثيرين منهم قد راحوا ضحية الصلف الاستعماري.

وكانت الدول الأوروبية لاسيما بريطانيا تسعى لتفتيت البلاد الإسلامية وخلق روح الانقسام بينها وتغذية الدسائس والحروب العرقية بغرض سلخها من عقيدتها وتبديل مواقفها الفكرية.

وكان السبب أنَّ بريطانيا هي أحرص البلاد الأوروبية على عدم السماح للمسلمين باستعادة سطوتهم التي ظهرت أيام الأندلس، ثم تتوجت لاحقاً في فترة الحروب الصليبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي والتي انهزم فيها الصليبيون الإفرنج مادياً ومعنوياً. ولذلك كان لا بد من استخدام سلاح الفكر والدين كجزءٍ من الحملات الاستعمارية. وفي هذا الإطار أشار مستر همفر Mr. Hampher أحد مجندي وزارة المستعمرات البريطانية في مذكراته إلى أنَّ منطقة

---

[20] عوض إبراهيم عوض، (2001م)، خاصية المنبر الاتصالية وحتمية إضافته لوسائل الاتصال الجماهيرية، ورقة بحثية غير منشورة.

الحجاز كانت هدفاً استراتيجياً للمهمة التي كُلف بها من أجل ضعضعة الفكر السائد بين أبناء جزيرة العرب. حيثُ كان الاعتقادُ السائد لدى وزارة المستعمرات البريطانية أنَّ قضية العقيدة هي القضية الوحيدة التي تُوحدُ المسلمين وتدفعهم للاستماتة من أجل حقوقهم التاريخية [21]. ولذلك لا بد من تفتيت هذه الرابطة الدينية القوية.

ووفقاً لتقارير المخابرات البريطانية آنذاك فإنَّ الطريق الأسهل لتحقيق هذه المهمة هي خلق فتنةٍ بين المسلمين أنفسهم حتى ينشقوا فيما بينهم ويتصارعوا من خلال الدين، ولا سبيل غير ذلك. وبعثت بريطانيا بعشرات الجواسيس المدربين تدريباً دقيقاً للتغلغل وسط المسلمين تارةً باسم الدين، وتارةً باسم السياحة، وتارةً باسم التمازج الثقافي مع الشعوب.

وامتلأت أضابير قسم العلاقات الدولية بمجلس العموم البريطاني بالمعلومات الدقيقة عن دول الشرقين الأدني والأقصى حتى قيل إنَّ من يبحث عن مكان كلبه الضال سيجده بين دوسيهات الحكومة البريطانية في تلك المرحلة. وكما أشار مستر

---

[21] أنظر مذكرات مستر همفر، (الجاسوس البريطاني في البلاد الإسلامية)، بدون تاريخ، وبدون تحديد لاسم الناشر، نقله من اللغة الإنجليزية للعربية الدكتور ج. ج.

همفر فإنَّ تلك السياسة قد نجحت في نهاية المطاف بغرس الفتنة الدينية الكبرى بتقسيم المسلمين إلى معسكرين سُني وصوفي يتنازعان فيما بينهما أشدَّ من تنازعهما مجتمعينِ ضدَّ أعداء الدين الحقيقيين من اليهود والنصارى[22]. ومن بين التغييرات المرسومة في المستعمرات كان إبدالُ الإسلام بالمسيحية في البلاد التي يدينُ أهلها بالإسلام.

ومن ذلك ما حدث في السودان في أعقاب ثورة 1924م، حيثُ انتهزت البعثات التبشيرية المسيحية الإنجليزية والإيطالية بالسودان فرصة الظرف السياسي الحرج الذي مرت به البلاد في أعقاب القلاقل التي واكبت الثورة، فقررت أن تفرض تدريس الديانة المسيحية للتلاميذ المسلمين الذين يدرسون لديها وتدعوهم لنبذ الإسلام واعتناق المسيحية [23].

كما أقرت أن تأخذ أولئك التلاميذ لحضور الصلوات في كنائسها بجانب التلاميذ المسيحيين في أيام الأحد، علَّ وعسى أن تظفر بتنصير بعضهم أو على الأقل تشكيكهم في الإسلام. ورغماً عن خطورة ذلك القرار وما أثاره من رِيبةٍ وذُعرٍ بين المواطنين إلا

---

[22] عبد الله حسن زروق، (1985م)، قضايا التصوف الإسلامي، دار الفكر الخرطوم.

[23] عوض إبراهيم عوض، أبعادُ الصراع السياسي حول استقلال السودان، تحت الطبع.

أنه كان برداً وسلاماً على البريطانيين والإيطاليين المالكين لتلك المدارس التبشيرية. حيث إنهم ظلوا طوال السنوات التي فاقت العشرين بعد القضاء على دولة المهدية الإسلامية في السودان يتوقون لمثل هذا اليوم الذي ينتصرون فيه للكنيسة ويجلبون ليسوع المسيح أتباعاً جُدداً من المسلمين.

ولم يكن هناك أفضل من حالة الهرجِ والفوضى التي حدثت بالبلاد في تلك المرحلة لتنفيذِ ذلك المخطط كي يؤدوا رسالتهم التي يستعصي أداؤها في الظروفِ الطبيعية.

وقبلَ تلك الأحداث كانت الحكومة البريطانية قد منعت المبشرين من ممارسة أي نشاط تبشيري بشمال السودان خوفاً من إثارة حفيظة المواطنين المسلمين، واكتفت بالتبشير في المناطق ذات الغلبة الوثنية التي اعتُبرت مناطق مقفولة وهي جنوبُ السودان، وجبال النوبة بكردفان، ومنطقة الأنقسنا بجنوب شرق البلاد، وشريحةٌ صغيرة من إقليم دارفور الغربي.

وكان الإنجليز يُمعِنون في الحفاظ على تلك القيود بعدم التبشير في الشمال مخافة إغضاب المسلمين الذين لا يقبلون أي سلوك يخدش مشاعرهم الدينية. وإمعاناً في التمويهِ على المواطنين بدأت السلطاتُ البريطانيةُ تُحاكمُ كُلَّ من يَسُبُّ الدينَ علناً. وسمحت

بممارسة الشعائر الدينية في المساجد، والحج إلى بيت الله الحرام. ولم تمنع في تلك المرحلة إلا قِراءةَ راتبِ المهدي الذي اعتبرته مظهراً سياسياً يدعو لإرجاعِ المهدية بالسودان وليسَ طقساً دينياً كما يقولُ أنصارُ المهدي الذين يقرأونه في خلواتهم وجلساتهم الخاصة.

في تلك الظروف المتوترة صدر قرارُ المدارس التبشيرية بتدريس المسيحية لأبناء المسلمين. وما أن علم المواطنون بصدوره حتى ثارت ثورة الآباء وأولياء الأمور بشكل لم يسبق له مثيل، وأمروا جميع أبنائهم بمقاطعة الدراسة والبقاء في منازلهم بدلاً من الذهاب إلى المدارس.

وكان من أخطر ما أثار حفيظة الآباء أنَّ أحد التلاميذ المسلمين قد أعلن تنصره وخروجه عن الإسلام نتيجةً لتلك الضغوط والاغراءات التي مارستها عليه المدرسة التبشيرية. ولما كان ذلك التلميذ من أبناء الأُسر الفقيرة فقد دعمته المدرسة بمالٍ وفير وساعدت أسرته بكثيرٍ من المسلزمات التي لا تقوى على شرائها. وذلك أن انسلاخه عن دينه ودخوله في الكنيسة سيشجع غيره من التلاميذ ليحذوا حذوه. وعلى أثر ذلك الحدث تناقلَ الناسُ تلك الأخبار التي عمَّتْ أرجاء المدينة وما جاورها. وبدأ الجميعُ يُتابعونَ

تفاصيل ذلك التطور المريب في سلوك الكنيسة البريطانية والإيطالية تجاه أطفالهم المسلمين. وخرجَ نتيجةً لذلك أحدُ القادة الوطنيين بالسودان وهو السيد **(عبد الله خليل)**[24] وقادَ مع والده مُظاهرةً حاشدة شارك فيها عددٌ كبير من الآباء وأولياءِ الأمور والمواطنين الذين استفزت مشاعرهم تلك التطورات المريبة.

طافت المظاهرة شوارعَ الخرطوم مارةً بمكتبِ الحاكم العام ومكاتب الموظفين البريطانيين لتشعرهم بموقفها الرافض لذلك التوجه الخطير. وعلى الفور دعا مُفتي الديار السودانية الشيخ **(إسماعيل الأزهري)** إلى اجتماعٍ عاجل بنادي الخريجين[25] بمدينة أم درمان لبحث مصير التلاميذ الذين أخرجهم آباؤهم من تلك

---

[24] عبد الله خليل من الرواد الأوائل في السياسة الوطنية. وقد تخرج في كلية غردون التذكارية بقسم الهندسة، وكان عضواً في جمعية الاتحاد التي كان دورها تأهيل السودانيين لشغل المناصب التي كان يحتلها المصريون. انخرط في حزب الأمة عند تأسيسه في منتصف الأربعينيات. وعند قيام أول برلمانٍ رشح نفسه في دائرة أم كدادة بغرب السودان وفاز فوزاً ساحقاً أهّلَه فيما بعد لتولي منصب رئيس الوزراء عندما ائتلف حزبه الأمة وحزب الشعب الديموقراطي.

[25] نادي الخريجين هو أول الأندية الكبرى في السودان، وقد نشأ في عام 1918م نتيجةً لصراع الوطنيين مع الحكومة البريطانية. وكان الهدف منه أن يحوي نشاط المثقفين وخريجي المدارس النظامية من السودانيين. ثم تحول إلى ممارسة النشاط السياسي ضد الحكم الاستعماري وهو الهدف الذي نشأ النادي خصيصاً من أجله.

المدارس التبشيرية خوفاً على عقيدتهم الإسلامية. وخرج الاجتماع بعدَ مداولات مكثفة بقرارٍ قضى بإنشاء مدرسةٍ أهلية تستوعب أولئك التلاميذ، وتكون منبراً وطنياً لتدريس المناهج السودانية القائمة على أساس احترام الإسلام وعدم تبديله تحت أي ظرف. وكانت تلك الحادثة بمثابة الناقوس الذي دقَّ بين المسلمين في كثيرٍ من بقاع العالم المستعمرة والتي بدأت تتوجس أكثر مما مضى من نوايا الاستعمار تجاه الإسلام والمسلمين.

كانت السلطاتُ الاستعماريةُ قد أقامت أيضاً العديد من الأندية والمنتجعات الترفيهية الخاصة برعاياها الأجانب، والتي لا يجوز للوطنيين أن يدخلوها إلا في أضيق نطاق. وكانت هذه الأندية بؤراً للممارسات غير الأخلاقية التي اشتهر بها الغربيون على مدى السنوات التي قضوها في المستعمرات.

3/ المحور الاقتصادي

لقد سعت الدول الاستعمارية للسيطرة على اقتصاديات البلاد المستضعفة كواحدة من أهم أهدافها التي أملت عليها دخول هذه المستعمرات. ونتيجةً للجهودِ الحثيثة التي بذلتها على مدى السنوات انتقلت ملكية وسائل الإنتاج والمشاريع الإنتاجية من

المواطنين الأصليين إلى البيض في جميع المستعمرات، خصوصاً الإسلامية منها. حيثُ سيطرت الدول الغربية على اقتصاد المسلمين بأساليب في غاية الدهاء والحنكة، وكان أولها إنشاء المصارف وبيوت الأموال التي بدأت ببنك الجزائر الذي أنشأه المستعمرون الإيطاليون في عام 1851م لتسيير أعمالهم الاقتصادية. ثم أنشأوا بعده فرعاً لمصرف روما في مدينة طرابلس الليبية في أبريل عام 1907م.

وجاء إنشاء ذلك المصرف قُبيل الاحتلال ليساعد الحكومة الإيطالية في بسط نفوذها الاقتصادي إبَّان فتراتِ الاستيطان. وبدأ البنك عمله في مدينة طرابلس، ثم ما لبثَ أنْ أُنْشِئَتْ له فروعٌ في كل من: **(بني غازي، وزوارة، وحمس، وسرت، ومُصراتة، وزليطن، ودرنة، وطُبرق، والسلوم)** [26].

استفاد الطليانُ من عائداتِ ذلك المصرفِ في تمويل المشاريع الاستيطانية فيما بعد. إلا أنَّ مسار الأحداث قد كشف أنَّ له دوراً آخر أكثر أهميةً من الاستيطان وهو أنه قد أصبحَ مركزاً للتجسس لحساب وزارة الحرب الإيطالية. وكانت تلك المصارف أداةً

---

[26] عبد المالك خليفة التميمي (1983م)، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفحة 83.

طيعةً في أيدي الأوربيين لامتصاص أموال المسلمين التي أصبحت نهباً للمستعمرين في كل مكان. وكان السوق الأوروبي يمتص ثلاثة أرباع تجارة البلاد الإسلامية عن طريق هذه المصارف الأوربية على مدخلات الإنتاج الصناعي والزراعي والتجاري التي تمثلت في وسائل النقل، والمناجم، والتجارة الخارجية، والزراعة، والصناعة والتعدين.

ونتيجةً لذلك تراجعت حصة الدول الإسلامية من الصادرات وزاد حجم وارداتها. ففي حين بلغ حجم الإنتاج والاستهلاك لدول أوربا الغنية 90% من الناتج العالمي كان نصيب هذه البلاد الإسلامية 10% فقط من ذلك الإجمالي[27].

وكنتيجةٍ لاختلال ميزان القوى الاقتصادية أصبحت الدول الاستعمارية التي تمثل 33% فقط من مساحة الكُرةِ الأرضية لا يسكنها سوى 1100 مليون نسمة أي 25% فقط من سكان العالم هي الأكثر تقدماً في جميع المجالات الحيوية كالصناعة والتكنولوجيا والتعدين. في حين أصبحت الأغلبية التي تمثل 75% من حجم السكان أفقر بقاع العالم وأكثرها تردياً وتعرضاً للأوبئة

---

27 موريس غوربيه (1982م)، العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، صفحة 144.

والأمراض الفتاكة والتخلف والجهل. وحسب إحصائية موريس غورييه في كتابه (العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم) يتمتع الأغنياء رغم قلتهم العددية ب 80% من الثروات. في حين يملك الفقراء الذين يمثلون 75% ما لا يزيد عن 20% فقط من الثروات الموجودة في العالم.

بذلك الواقع ازداد عدد فقراء العالم الذين كانوا حوالي 200 مليون نسمة في عام 1960م إلى أربعمائة وخمسين مليون نسمة بحلول عام 1970م. ثم تضاعف العدد إلى ثمانمائة مليون نسمة في سنة 1980م، ثم ارتفع إلى ألف مليون نسمة في عام 1990م[28]. وللأسف فإنَّ المسلمين هم القاسم المشترك الأعظم في كل هذه الاحصائيات.

ووسط هذا الواقع المرير نمت الفوارق الاقتصادية بين دول الغرب المتسلطة والدول الإسلامية التي أصبحت مغلوبةً على أمرها تماماً تجاه تسيير دولابها الاقتصادي، رغماً عن الثروات الطائلة التي حباها اللهُ بها منذ الأزل. ولا يشك أحدٌ أن أراضي المسلمين ظلت حُبلى بالبترول، والذهب، والغاز الطبيعي، والحديد، والأسبستوس، والفحم، وغيرها وغيرها من ثروات الأرض. وعلى

---

28 موريس غورييه المرجع السابق، صفحة 147.

العموم فقد ظلَّ أسلوبُ نهب ثروات البلاد الإسلامية مُسيطراً على العقلية الاستعمارية حتى بعد ظهور النزعات التطورية في هذه البلاد التي نمت خلال السنوات كنتيجةٍ لظهور بعض القوى الإسلامية الرافضة لهذا التردي والخنوع لقوى الاستعمار.

❖❖❖

الفصل الثالث

❄❄❄❄❄

أساليب التغلغل في الدول

الفصل الثالث

أساليب التغلغل في الدول

❄❄❄❄❄

لجأت الدول الاستعمارية لفرض سيطرتها بأساليب مختلفة ومتباينة انتهجتها مع كل دولة حسب طبيعتها وظروفها الخاصة. مما جعل هذه الأساليب تتنوعُ من بلدٍ لآخر حسب طبيعته الجغرافية وتركيبته الأنثروبولوجية والإثنية.

ولعلَّ خارطة البلاد الإسلامية وموقعها الجغرافي في جنوب البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط بعموميتها وقارتي آسيا وأفريقيا قد سهلَّ كثيراً مهمة المستعمرين الذين لم يُعانوا في الوصول إليها كمعاناتهم في الوصول إلى غيرها من البقاع التي استعمروها في أميركا الجنوبية وجنوب شرق آسيا.

ثم إنَّ الارتباط الوثيق بين دول أوربا والبلاد الإسلامية منذ أيام الأندلس قد أسهم بدور كبير في وصول القوى الاستعمارية إلى المنطقة. حيث كان البعضُ يرى أهمية الانتقام مما عايشوه في أخريات أيام المسلمين عندما تضعضع الحكم في فترة المعتمد بن عباد الذي لم يأبه لأمر الدولة، وعاش مرفها منعماً بين ملذاته

وجاهه وسلطانه وإرضاء نفسه. وتمثلت أشكالُ التغلغل في الأساليب التالية:

أ/ الاجتياح المسلح

كانت بريطانيا هي أول الدول التي تخصصت في اغتصاب الدويلات الصغيرة وإخضاعها لنفوذها عن طريق الاجتياح المسلح. وقد استخدمت هذا الأسلوب إلى جانب بريطانيا كلٌ من فرنسا وإيطاليا والبرتغال التي سخرت قوتها المادية والعسكرية لاجتياح المستعمرات.

والاجتياح في القاموس السياسي والعسكري يعني دخول الدولة باستخدام عنصر القوة وفرض هيمنتها قسراً وعُنوةً باستخدام السلاح. وكانت فرنسا إبان فترة نابليون بونابرت دولةً متسلطة ومتغطرسة في أساليبها الاستعمارية التوسعية مما أدى إلى تحجيم بقية الدول الأوروبية المنافسة لها وانسحابها من المسرح في العديدِ من المواقع.

وعندما انهارت حكومة نابليون كانت الفوضى قد ضربت أطنابها في جميع أنحاء أوربا. مما دعا القائمين على أمر الحكومات إلى التنادي بعقد مؤتمر دولي جامع يُعيد الأمور إلى

نصابها بين تلك الدول المتنافسة. وبالفعل كان مؤتمر فينا 1814-1815م الذي وضع شروطاً لفرنسا لا تستطيع بموجبها القيام بمغامراتٍ توسعية في المستقبل.

وفرض المؤتمر على فرنسا أن تتخلى عن بعض مستعمراتها التي ضمتها حديثاً وتعود إلى حدودها السابقة قبل ظهور نابليون على مسرح السياسة [29]. والتزمت فرنسا لبعض الوقت بذلك الأمر الذي كان غُصةً في حلقها رغمَّ أنه لا مفرَّ منه. إلا أنَّ العقلية الاستعمارية التوسعية لم تبرح مخيلة الفرنسيين، مما فرض عليهم نمطاً من السلوك الاستعماري كان هو الأسوأ في تاريخ الاستعمار العالمي.

وقد بدا ذلك جلياً في البلاد التي استعمروها مثل الجزائر، وتونس، والسنغال، حيثُ انطمست كثيرٌ من معالمِ الهُوية سواءٌ الإسلامية، أو العربية، أو الأفريقية في هذه الدول، وتضعضعت آثار الثقافة الدينية والوطنية إلى حدٍ كبير بين المواطنين.

وطغت اللغةُ الفرنسية على اللغات الوطنية في هذه البقاع بشكلٍ ملحوظ. ولذلك ابتعدت هذه الدول وجدانياً وروحياً عن رفيقاتها الأخريات لسنواتٍ طويلة حتى بعد الاستقلال. وذلك لأنَّ

---

29 عالم المعرفة، المجلد الثالث، بيروت، لبنان.

محو آثار الاستعمار الفرنسي كانت أصعب بكثير من محو آثار الاستعمار البريطاني أو الإيطالي أو البرتغالي. أما بريطانيا فقد درجت على وضع استراتيجياتٍ بعيدةِ المدى من خلال وزارة المستعمرات التي كانت مهمتها رعاية شؤون الدول المستعمرة من أجل الضغط عليها وإبقائها تحت النفوذ البريطاني.

وكان من أبجديات الاستيطان البريطاني أنْ أُخضِعت الدول للقوانين التي وضعتها بريطانيا مما أبعد كثيراً القوانين المحلية في عدد من البلاد الإسلامية كنيجيريا وماليزيا والسودان وباكستان لاحقاً.

ب/ الهجرة الاستيطانية

كانت الدول الأوروبية تُشجع أبناءها للسفر إلى أفريقيا وآسيا وأمريكا بغرض الاستيطان في المستعمرات. وكانت هذه النظرة بعيدة المدى حيث إنَّ الاستيطان هو الوسيلة الأجدى في تطويع الشعوب وجذبها إلى الأنماط الثقافية الغربية التي يُراد غرسها بين الأهالي على حساب معتقداتهم الدينية وموروثاتهم الحضارية. وكان الأوروبيون في بادئ الأمر متأففين من السفر إلى بعض المستعمرات النائية إلا أنَّ حُكوماتِهم قد وضعت لهم كثيراً

من المغريات التي شجعتهم على تلك الهجرة. حيثُ أجازت بريطانيا وفرنسا وهولندا كثيراً من الامتيازات لمن يوافق على الذهاب إلى المستعمرات والعيش فيها. وكانت تلك الاغراءات قد أملتها ظروف الحاجة لوجود هؤلاء الرعايا بهدف نقل التجارب والممارسات والعادات والتقاليد الأوروبية وطمسِ هويةِ الشعوب المستضعفة. ومن تلك الامتيازات:

- الإعفاء من الضرائب المفروضة على السكان الأصليين.
- التقاضي أمام محاكم خاصة وليس المحاكم المحلية.
- دفع تعويضات عن أي أضرار تلحق بالرعايا الوافدين.
- عمل حراسات ليلية كاملة لهم ولأسرهم.
- إعطاء رواتب أعلى من أي راتب يتقاضاه المواطنون.

ولم يكن البيضُ الذين غلبت عليهم النزعةُ المادية على مر العصور بقادرين على مقاومة هذه الاغراءات، فتدافعوا للسفر إلى المستعمرات والعيش فيها ما داموا يتمتعون بكل هذه الامتيازات ولا يدفعون في المقابل أي ضرائب للحكومة. صحيح أنَّ الإعفاء من دفع الضرائب لم يكن سهلاً على الحكومات الاستعمارية التي

تحتاجُ لكل قرشٍ من أجل تسيير أعمالها، ولذلك ثارَ لغطٌ طويلٌ في أروقة الحكومات الاستعمارية حول هذه الامتيازات لاسيما الإعفاء الضريبي، وذلك لأن الضرائب كانت جزءاً مهم اً من بنود تمويل خزائن الدول الاستعمارية. فضلاً عن ذلك فقد كان الأجانب يستأثرون بنصيب وافر من أدوات الإنتاج والأراضي الزراعية التي تدر عليهم أرباحاً وفيرة أكثر من المواطنين المحليين الذين كان معظمهم عمالاً في حقول الأوروبيين.

ولكن إذا لم يتم إعفاء الأوروبيين من دفع الضرائب مهما قَلَّتْ أو كَثُرَتْ فإنهم ربما يعودون إلى بلادهم ويتركون هذه المستعمرات. ولذلك لم يكن هناكَ بُدٌّ من هذا الإعفاء حتى تضمن الدول تنفيذ سياساتها الموضوعة لطمس الهوية وترسيخ مفاهيم جديدة وسلوكٍ جديد.

وكان من واجب السلطات الاستعمارية أنْ تحميَ الأقليات الأجنبية التي جلبتها لتعيش في المستعمرات. وتمثلت تلك الحمايةُ في دفع التعويضات للمتضررين من المعاملات التجارية أو تلك المتعلقة بالممارسات اليومية للأفراد، وهي تُدفع من خزينة الدولة الواقعة تحت الهيمنة الاستعمارية. أما عن وضع الحراسات الليلية في أماكن سكن الأوروبيين في المستعمرات فقد كان هناك قانونٌ

خاص يقضي بوضع تلك الحراسات حتى لا يُقلقَ أحدٌ راحة المستعمرين عندما يخلدون للنوم والراحة[30]. ولعل الأوروبيين قد استمرأوا تلك الخصوصية فعاثوا فساداً في بعض المدن.

ومن ضمن ذلك ما رواه بعضُ شهود العيان من أهل مدينة أم درمان العاصمة الوطنية للسودان. حيثُ ذكروا أنَّ ثلاثةً من البريطانيين الذين كانوا يقطنون مدينة الخرطوم في أخريات أيام الاستعمار البريطاني ركبوا سيارةً مكشوفةً ودخلوا أحدَ الأحياءِ السكنيةِ بأم درمان خِلسةً.

وكانت الشمس تأذنُ بالمغيب، مما يسهل معه كشف البيوت من داخلها [31]. وأثناء تجوالهم على متن السيارة ومن حوائط أحد البيوت رمق أولئك البريطانيون فتاةً كانت ترقد على سرير في فناء دارها، وفجأة قرروا أنْ يعتدوا على شرفها. واقتحموا المنزل

---

[30] عوض إبراهيم عوض، (1994م)، الهجمة الاستعمارية على العالم العربي، ورقة بحثية قُدمت في ندوة المائدة المستديرة على مهم ش وقائع المسابقة العلمية السادسة للطلاب العرب، بجامعة ناصر الأممية، طرابلس، ليبيا، يوليو 1994م، صفحة 10.

[31] كان تصميم البيوت السودانية مساعداً على مثل هذا التفتيش، حيثُ توجد في كل البيوت أسوارٌ واسعة تُبنى من الطين أو القصب أو المواد الثابتة، وتُبنى الغرف داخل هذه الأسوار في أحد الجوانب ويترك الباقي فناءاً خالياً. ومن عادةِ السودانيين أن ينامَ أفرادُ الأسرة في هذا الفناء وليس داخل الغرف خصوصاً في ليالي الصيف الحارة نسبياً حيثُ يكونُ الطقسُ خارج الغرف لطيفاً ومساعداً على النوم.

بسرعة وحاولوا الاعتداء عليها. وتصادف وجود شقيقها الذي كان يرقد في سور الجانب الآخر من المنزل، فلم يتمالك نفسه وانقض على هؤلاء المعتدين فطعن أحدهم بالسكين وأرداهُ قتيلاً في الحال. وهرب الآخران بسيارتهما إلى مدينة الخرطوم حيث اختفيا من عيون الناس.

وعندما علمتِ الحكومةُ بما حدث تسترت عليه كعادة الحكومات الاستعمارية، وذلك حتى لا تُثيرَ حفيظة المواطنين ضِدَّ رعاياها ولا تخدش سمعتهم أو سمعة دولتها. وإمعاناً في حماية مواطنيها والتستر عليهم منعت رعاياها البريطانيين الذين يعيشون بالسودان من دخول مدينة أم درمان خوفاً من انتقام المواطنين منهم. واستمر ذلك الحظر إلى أن غادروا السودان في أخريات عام 1955م.

وإمعاناً في تمجيد الرعايا وإذلال المواطنين في المستعمرات وضعت الحكوماتُ الاستعماريةُ وعلى رأسها بريطانيا قانوناً يخضع بموجبه المواطنون للمحاكم المحلية العامة، في حين يتقاضى الرعايا الأوربيون أمامَ محاكم خاصة عُينت خصيصاً للنظر في القضايا التي تشملهم. وهي محاكم مميزة وراقية وسريعة حتى يتم تمييز الأوربيين عن الأهالي البسطاء والمتخلفين في نظر

الحكومات الاستعمارية. وكانت هذه المحاكم الخاصة بالأوربيين على عكسِ المحاكم العامة إيجازيةً في معظم أحكامها وسريعةٌ في البت في أحكامها بحكم أنها قد أُنشئت خصيصاً لتكريم الأوربيين. وقد كان هذا الامتياز عنصراً مهم اً بالنسبة للرعايا الأوروبيين الذين كَثُرَ إجرامُهم في المستعمرات، خصوصاً وأنَّ كثيراً منهم كانوا من ذوي الأخلاق السيئة والسيرة غير الحَسَنة.

وأكبرُ دليلٍ على ذلك أنَّ بريطانيا عندما استعمرت شِبْهَ القارة الأسترالية بعثت إليها بمعتادي الإجرام والمنبوذين والمنحرفين جنسياً كإحدى العقوبات.

وشيئاً فشيئاً وجدت أستراليا مُدُنَها تضجُّ بشذاذ الآفاق والمجرمين من البريطانيين الذين عاشوا وسط الأستراليين الأصليين Aborigines بعد أن سلبوهم مساكنهم ومتاجرهم، وطمسوا معالم حياتهم الخاصة وأبدلوها بأساليبَ أوربيةٍ جديدة لم تكن بالضرورة تستقيمُ مع طبيعةِ هؤلاء الأهالي.

وعندئذٍ ظهرَ عُنصُرٌ جديد من البشر هو خليطٌ غيرُ متجانس من البريطانيين والسكان الأصليين. وحَمَلَ هذا الخليطُ معظم سماتِ الأوروبيين، في حين لم يرث إلا النذر اليسير من سمات المواطنين المحليين الذين أخذوا في التلاشي والانقراض.

ج/ الاندماج الكامل

كان من أساليب إحكام السيطرة على العالم الإسلامي مسألة الاندماج الكامل بين الدول الغربية وبين مستعمراتها. حيثُ سعت فرنسا للاندماج مع الجزائر. وظلَّ هذا الهاجسُ يشغل بال الفرنسيين منذ أنْ احتلت فرنسا الجزائر في عام1830م. إلا أنه قد فرض نفسه كأمر واقع في عهد الجمهورية الثالثة 1871–1940م. حيث نادت الحكومة الفرنسية بنقل الفرنسيين إلى الجزائر بغرض الاندماج والاستيطان الكامل في المدن الجزائرية.

كان مرسوم نابليون الصادر في عام 1864م قد حوَّلَ أسلوبَ الاستعمار للجزائر إلى الأسلوب الحر أو ما يمكن أن نُسميه الاستعمار الشعبي. حيثُ أقر المرسومُ أن يلجأ الرعايا الفرنسيون ومِنْ بعدهم رعايا الدول الأوروبية في المستعمراتِ الأخرى لأسلوب الشراء الحر لممتلكات الأهالي وعلى رأسها المساكن والأراضي الزراعية.

وبذلك أصبح حق التملك لتلك الأراضي مشروعاً لكلِ من أرادَ من الأوربيين، فضلاً عن أنه أصبح وسيلةً ناقلة للملكية ومُبرئةً للذمة أمامَ جميعِ المحاكم. وشيئاً فشيئاً استطاع الفرنسيون أن يتغلغلوا في أوساط الأهالي داخل المستعمرات خصوصاً في

الجزائر، حيث تملكوا آلاف الهكتارات. وقد أطلق ذلك التصرف يد الرأسمالية الفرنسية في مجالاتِ الاستثمار الإقطاعي كافةً داخل الدولة. وصارت السمة الغالبة لشكل الاستثمارات والتنمية على الطراز الفرنسي.

ولم تكتف القوى الاستعمارية الفرنسية بذلك بل طمعت في أن تستأثر بالبقاء وحدها في الجزائر دون إزعاج الأوروبيين الآخرين لها. فلجأت إلى الحد من هجرة الأوروبيين من الدول الأخرى للجزائر رغم أنَّ مرسوم نابليون قد شجعهم على تلك الهجرة.

وفرضت فرنسا بذلك هيمنتها الكاملة على البلاد حتى لا يختلَ ميزانُ القوى وتفشلَ في تنفيذِ سياساتها المرسومة. ولما شعرت بحلاوة السيادة ولذة النصر وعدم وجود منافسة يُؤبَهُ لها من بقية القوى الاستعمارية احتلت تونس في عام 1881م.

ولم يكن احتلالها لها أقل بشاعةً وشراسةً من سابقاتها. ثمَّ بعد ذلك زحفت على مراكش واحتلتها رسمياً في مطلع عام 1912م لتضع يدها بشكل أكبر وأوسع على الشمال الأفريقي المسلم[32].

---

[32] موريس غوربيه (1982م) العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، صفحة 64.

د/ التبعية السياسية

كان من نتائج اجتياح الدول وفرض الهيمنة عليها أن استمرأت الدول الاستعمارية فكرة تبعية المستعمرات لها من الناحية السياسية. وقد سعت بكل الأساليب المتاحة لها لتنفيذ هذه التبعية والانقياد السياسي. ومن ذلك أن بريطانيا قد عملت في عام 1914م على جذب كل مُستعمراتها الإسلامية لخوض الحرب في صفِّها نَتيجةً لدخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا.

وكانت بريطانيا تُمني بعضَ هذه الدول الإسلامية بحماية مصالحها في قنال السويس والخليج العربي من الأطماع الألمانية. إلا أنَّ معظم تلك الوعود قد كانت خِداعاً ليس إلا. حيثُ إنه في عام 1916م أعلن الشريف حسين حاكم مكة ثورةً ضد الأتراك بإيعاز من البريطانيين الذين وعدوه بتحقيقِ المطامعِ العربيةِ في العراق وسوريا وفلسطين.

واستمرت ثورةُ الحسين ضدَّ الأتراك قويةً وصامدة، إلا أنَّ الإنجليز كانوا يخططون في الخفاء للغدر به واحتوائه في نهاية المطاف متى ما وجدوا لذلك سبيلاً. وذلك لأنهم أرادوا بتلك الحركة أن يتقاسموا مُدخرات المسلمين التي تمثلت في أملاك السلطنة العثمانية بينهم وبين الفرنسيين وفقاً لاتفاقية سايكس بيكو، وهذا ما

حدث بالفعل [33]. أمر آخر كان ضربةً قاسيةً للمسلمين وهو ما حدث في عام 1917م حينَ أعلنَ وزيرُ خارجية بريطانيا مستر بلفور وعد حكومته لليهود بتحقيق مطامحهم القديمة في إنشاء وطنٍ قومي لهم في فلسطين المسلمة، ومن خلال ذلك يُمكن إخضاع الفلسطينيين للسياسة الاستعمارية الصهيونية.

وكان هذا الأمر بمثابة الصاعقة التي وقعت على رؤوس الشعوب الإسلامية، ليس لنقض بريطانيا لوعودها السابقة بتحقيق أماني المسلمين في فلسطين المسلمة والعراق فحسب، وإنما لأنه نهب مكشوف لأكثر البقاع قدسيةً في تاريخ الإسلام وهي أولى القبلتين ومسرى رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم.

وفي شهر أبريل من عام 1920م اتخذت **(بريطانيا وفرنسا وإيطاليا)** قراراً بوضع بعضِ البلاد الإسلاميةِ تحت الانتداب من خلال ما عُرِف بمؤتمر **(سان رينو)**. فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ووُضعت **(فلسطين والعراق)** تحت الانتداب البريطاني، على أن تلتزم بريطانيا بتحقيق وعد بلفور الذي أصبح التزاماً أدبياً وسياسياً لا بد لها من تحقيقه. وبالمثلِ كان تأثير

---

33 عبد المالك خلف التميمي (1983م)، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، صفحات 17-26.

الاستعمار الفرنسي قوياً على **(لبنان)** حيث جاء دستورها بنداً صريحاً من بنود بيان مجلس عُصبة الأمم الذي اجتمع في لندن في يوم 1922/7/24م. وكان الدستور قد نَصَّ صراحةً على أنْ تضع فرنسا دستور سوريا ولبنان خلال مدة لا تتجاوز الثلاث سنوات.

وثارت ثورة المساجد في هاتين الدولتين حيث سرت شائعاتٌ مفادها أنَّ الفرنسيين سيغلقون المساجد ويمنعون حرية العبادة ويقيمون الكنائس وفقاً للدستور الجديد الذي سيفصلونه على مقاسهم. ورغماً عن تلك الصرخات والرفض الإسلامي المكثف لذلك الدستور إلا أنَّ فرنسا قامت بالفعل في عام 1924م بإخطار مجلس العصبة بما تراه من شكل وتفاصيل هذا الدستور الذي فرضته قسراً على المنطقة بعد أن عينت لجنةً لصياغته من موظفي الكي دورسيه (مقر وزارة الخارجية الفرنسية).

كان ذلك الدستور يتضمن تفاصيل الحدود وشكل الدولة وحدودها الخ، ولكنَّ لحمته وسداه أن يؤكد تبعية سوريا ولبنان للسياسة الفرنسية بشكلٍ كامل.

وفي شهر يوليو عام 1925م قامت الثورة السورية بقيادة سلطان باشا الأطرش الذي أعلن في بيانه الأول بتاريخ 17 يوليو

عام 1925م مطالبة بلاده بإنشاء مجلسٍ تأسيسي مُنتخب من الشعب لوضع دستورٍ للبلاد يتماشى مع هويتها الإسلامية. وقد قبلت فرنسا ذلك الأمر بعد شهور من التلكؤ والمراوغة.

وإمعاناً في فرض الهيمنة الاستعمارية على البلاد فقد جاء الدستور السوري ملائماً لرغبة الفرنسيين دون أي مراعاةٍ لوجود الأغلبية المسلمة من السكان، وذلك لأنَّ جميعَ الذين وضعوه كانوا من الدبلوماسيين الفرنسيين.

وأعلن المندوب السامي الفرنسي بنوده في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو عام 1926م ليفرضَ في مادته الخامسة أن يكون العلم اللبناني هو نفس علم فرنسا مع إضافة أُرزة خضراء في الوسط [34].

وفي عام 1948م قامت الدولة الصهيونية في أرض فلسطين، حيثُ حدثتْ هجراتٌ واسعة من اليهود المنتشرين في أنحاء العالم إلى أرض فلسطين ونشأت على أثر ذلك العديدُ من المستوطنات اليهودية. وخلال الفترة من 1948م إلى 1967م تحولت أكثر من 400 قرية فلسطينية إلى مستوطنات يهودية بعد

---

[34] حسين جميل (1986م)، حقوق الإنسان في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، صفحة 75.

طرد سكانها المسلمين منها[35]. حيثُ كان اليهود يشترون الأراضي في فلسطين بأي ثمن يعرضه الأهالي حتى ولو كان ثمناً تعجيزياً. وكان بعض الوطنيين يندهشون لتكالب أولئك الناس على شراء الأراضي لاسيما في الضفة الغربية لنهر الأردن.

ولم يفطن إلا القليلون إلى أنَّ تلك المسألة قد كانت مخططاً مَدروساً بعناية فائقة بغرض تهويدِ هذه الأراضي المسلمة. ولم يفطن الكثيرون لما كتبه جوزيف مايتس أحد المسؤولين عن الاستيطان اليهودي في عام 1940م حين قال ضمن ذلك المقال الشهير:

«ينبغي أن يكون واضحاً فيما بيننا أنّ هذا البلد فلسطين لا يمكن أن يتسع لكلا الشعبين. إننا لن نحقق هدفنا في الاستقلال إذا بقي العرب في هذا البلد الصغير. والحل الوحيد يتمثل في تفريغ فلسطين أوعلى الأقل فلسطين الغربية غرب نهر الأردن من العرب. وليس ثمة وسيلة أخرى سوى نقل العرب الموجودين هنا جميعاً إلى البلدان المجاورة، وينبغي ألا تبقى قرية واحدة أو قبيلة واحدة». وظلَّ الشعب الفلسطيني يدفع الثمن غالياً منذُ تلك الفترة ويجتر عبارة: **(أرضٌ بلا شعب، وشعبٌ بلا وطن)**

---

[35] عبد المالك خلف التميمي، مرجع سابق، صفحة 100.

التي انطلقت من مُداولات مؤتمر بازل لذي انعقد بسويسرا في عام 1897م تحت مظلة بروتوكولات بني صهيون[36]. وكانت تلك العبارة الكاذبة تعني أنَّ اليهود شعبٌ بلا وطن ولا بد لهم من وطنٍ يسكنون فيه، وأنَّ فلسطين أرضٌ بلا شعب ولا بد لها من شعبٍ ليستوطنها. وبالتالي فإنها حلالٌ على اليهود الباحثين عن وطن، خصوصاً وأنها أرض الميعاد المذكورة في التوراة.

تجاهل اليهود وجود الشعب الفلسطيني بأكمله، وظلَّ زعماؤهم من الصهاينة وعلى وجه الخصوص رئيسة الوزراء السابقة قولدا مائير يرددون هذه العبارة بشكلٍ مستديم حتى عندما زارهم الرئيسُ المصري الراحل محمد أنور السادات.

وهذه العبارة بلا شك تُلخصُ ما يجيشُ في داخل العقلية الصهيونية التي ظلت على مدار التاريخ تلوي عنق الحقائق لتفرضَ ما تريد على عالم الواقع وتؤجج نيران الحرب. وكانت كل افتراضاتها خصماً على دينِ التوحيد وعلى أتباعه من المسلمين لولا عناية الله الذي ردَّ كيدهم في نحورهم في كل الأوقات حيثُ قال في مُحكم تنزيلِه: **﴿وقالتِ اليهودُ يدُ اللهِ مَغلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بما**

---

[36] زياد أبو غنيمة، (1989م)، السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، الطبعة الثانية، دار عمار، الأردن، عمَّان، صفحة 12.

قالوا بل يداهُ مبسوطتانِ يُنفقُ كيفَ يشاءُ، ولَيزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ طُغياناً وكُفراً، وألقينا بينَهم العَداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامةِ، كُلَّمَا أوقدوا ناراً للحَرْبِ أطفأها اللهُ، ويَسعونَ في الأرضِ فساداً، واللهُ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ﴾ [37].

استمرت آثارُ وعدِ بلفور الجائر على الأمة الإسلامية والذي جاء من خلال معاهدة **(سايكس بيكو)** في عام 1917م والتي تم فيها ترسيمُ المستقبلِ الإسلامي والعربي وفقاً للمنظور الأوروبي. ثم أُعلنَ الوعدُ بصورةٍ رسمية في عام 1918م.

وعقب نهاية الحرب العالمية الثانية 1945م وقَّعت الدولُ الأوروبيةُ **(اتفاقية يالطا)** التي أقرت بشكل رسمي إنشاء دولة إسرائيل، مكرسةً بذلك الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين المسلمة. وقد أيدت الأمم المتحدة ذلك القرار في اجتماع الجمعية العامة بعد صدور ما سُمي بقرار التقسيم.

وطوال تلك الفترة ظلت هجرة اليهود مستمرةً من مختلف بقاع العالم لاسيما أوربا الشرقية والغربية وبعض البلاد العربية. وانقسمت وفودهم النازحة إلى فلسطين حسب البلاد التي جاءوا منها وهم: يهود أوربا الغربية (الأشكينازيم)، ويهود أوروبا الشرقية

---

[37] قرآن كريم، سورة المائدة، الآية 64.

(السفاراديم)، ثم يهود البلاد العربية، وأخيراً يهود (الفلاشا) الذين نزحوا من إثيوبيا وهم أقل الدرجات بين اليهود، مما جعلهم يشعرون بالغبن والاضطهاد داخل الدولة اليهودية التي استمرأت الكيل بمكيالين ليسَ تجاه المسلمين أو العرب وحدهم، بل حتى تجاه أبناء جلدتها من أتباع الديانة اليهودية.

وشُرِّدَ الفلسطينيونَ من ديارهم نتيجة تلك الهجرات القسرية التي فُرضت عليهم عُنوةً واقتدارا، وتَمَّ تقسيمُهم لمجموعتين هما: مجموعة اللاجئين القُدامى الذين نزحوا عام 1948م، ومجموعة اللاجئين الجدد الذين خرجوا بعد يونيو 1967م نتيجة التقتيل والإخراج القسري، وهؤلاء يُقدرون ب 875 ألفاً من المواطنين. وقد أصبحوا بمثابة السلعة التي تساوم بها القيادات الإسرائيلية خصوصاً في مواسم الانتخابات البرلمانية.

وكانت آخر انتخابات أجريت في يناير عام 2001م قد اجترت هذا الأمر عندما قال مرشح الرئاسة أرييل شارون إنه لن يسمح بعودة هؤلاء المُبعدين إلى أراضيهم، في حين صرح منافسه إيهود باراك بأنه سيسمح بعودتهم. واعتبر المراقبون ذلك بمثابة الدعاية الانتخابية من باراك ليضمن أصوات اليهود العرب في الانتخابات التي فقدها في نهاية المطاف وفاز عليه الإرهابي

شارون [38]. والنتيجة التي يمكن أن نصل إليها من خلال هذا السيناريو الاستبدادي لدولة الكيان الصهيوني هي أنها قد فرضت على الفلسطينيين التبعية السياسية لها في جميع المراحل، وجعلت قرارهم مرهوناً بإرادتها في كل شيء حتى بعد إقرار الإسرائيليين بإنشاء كيانٍ للفلسطينيين في الضفة الغربية بزعامة ياسر عرفات. حيثُ ظلت كلُّ مقاليد الأمور بأيدي إسرائيل حتى منحِ تأشيرات الدخول إلى المدن الفلسطينية.

والخلاصةُ هي أن الاستعمار بمدلوله الذي أشرنا إليه آنفاً، والذي عَنى هيمنة الدول القوية على مُمتلكات الدول الصغيرة قد انعكس بشكل واضح في معظم الحركات الاستيطانية والحملات التي شهدتها البلادُ الإسلاميةُ وغيرها من دول آسيا وأفريقيا. حيث وقعت الهند تحت قبضة القوات البريطانية، وسيطرت الحكومة الإنجليزية على مقاليد الأمور فيها سيطرةً تامة.

كان ذلك الأمر دافعاً قوياً للبرتغال وهولندا وبريطانيا نفسها بعد ذلك أن تضم عدداً أكبر من دويلات جنوب شرق آسيا. فعبرت الأساطيل العسكرية البحر الأبيض المتوسط مروراً بجنوب القارة

---

[38] صحيفة الشرق الأوسط، المؤسسة السعودية للأبحاث والتسويق، عدد يوم الخميس 8 فبراير 2001م، صفحة 1.

الأفريقية عبر رأس الرجاء الصالح، واستعمرت جزر إندونيسيا التي زادت نسبة المسلمين فيها عن 95% والأرخبيل الملايوي الذي ضمَّ ملايين المسلمين من سكان مَلَقَا أو (مَلاكا) Malaka وكل المنطقة المحازية للساحل الممتد حتى بحر الصين الجنوبي [39] مكوناً جماعاتٍ أو محافظاتٍ تتبع لبعض الدول، أو حتى دويلاٍ أو كيانات ذات خصوصية في بعض الدول.

ثم زحف البريطانيون بعد أن سيطروا على كل بلاد المسلمين في هذه البقعة إلى جزر اليابان حتى قويَ نفوذُهم تماماً في أواسط وشرق وجنوب شرق آسيا. واستطاعت الدول الكبرى بعد ذلك أن تستخدم أهالي هذه المستعمرات في توطيد أركان حكمها وتثبيت دعائم حركتها حتى عندما أرادت أن تتوسع في مساحاتٍ أكبر.

إذن فإنهم بعدَ أن استعمروا هذه الشعوب استخدموها كأداةٍ لاستعمار شعوبٍ أخرى. وبهذا الشكل ظلَّ الاستعمارُ يبسط نفوذه الذي اعتمد على نقل الترسانات العسكرية وآليات الدول الكُبرَى عبر المحيطات من الأراضي الأوربية إلى المستعمرات كي تساعد في

---

[39] أنظر عوض إبراهيم عوض، (2001م)، أيامي بين غابات الملايو، دار الفجر للطباعة والنشر، القاهرة–كوالا لمبور، صفحة 46.

فرض الهيمنة من الداخل. ومكثَ هذا النوعُ من الاستعمار الذي استهدف الأمة الإسلامية حتى أخريات العقد السادس من القرن العشرين المنصرم.

❖❖❖

الفصل الرابع

الاستعمار الحديث

الفصل الرابع

الاستعمار الحديث

❄❄❄❄❄

عندما نستخدم عبارة الاستعمار الحديث فإننا نعني بها أسلوب الدول الكبرى الذي انتهجته خلال السنوات الأخيرة لفرض سياساتها وبسط سيطرتها وتوجهاتها الاقتصادية والآيديولوجية على الدول الأخرى دون اجتياحها عسكرياً أو الدخول في أراضيها بالقوة كما كان في الماضي.

وهذا الأسلوب الحديث ليس الغرض منه كما تزعمُ الدولُ الكبرى تطويرَ الدويلات الصغيرة أو إفادتها من التجارب الحديثة، وإنما ظل الهدف هو نفس الهدف القديم الذي تمثل في احتواء الدول من خلال السيطرة عليها، ونهب ثرواتها ومُنتجاتها الاقتصادية، وحرمانها من ممارسة حريتها في قرارها السياسي أو التمتع بتراثها العقدي أو الفكري.

وازدادَ الاستعمارُ الحديث ضراوةً في فرضه عُنصر الاستلاب الثقافي والفكري وفرض التبعية التي سعت الدول الكُبرى لفرضها على الأمم بشتى الأساليب والسبل لاسيما البلاد الإسلامية

ذات البعد الاستراتيجي والاقتصادي المؤثر. ويعودُ تاريخُ هذا النوع من الاستعمار الحديث إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في عام 1945م، حيث ارتأت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي أنَّ عليها واجباً جديداً يتمثل في العمل قدر المستطاع على اقتسام الدويلات التي كانت تتبع لبريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال قبل اندلاع الحرب.

وكانت بعض الرسائل المتبادلة بين قادة الكرملين في الاتحاد السوفيتي السابق في عام 1946م قد أشارت إلى أهمية السيطرة على هذه المناطق بأسرع ما يمكن، حتى لا تقع فريسةً في يد البيت الأبيض الأمريكي[40].

والسبب أنَّ الاتحاد السوفيتي قد شعر بأن تلك الدول استطاعت الإفلات من تأثير النظريات الاشتراكية الحديثة في قمة انشغال الدولة الروسية بشئونها الداخلية التي تفاقمت بتوسع الدولة عند إنشاء الاتحاد السوفيتي خصوصاً في فترة استالين التي نمت على أنقاض حكم القياصرة الذي أطاحت به الثورة البلشفية في أكتوبر عام 1917م. إذن فالظروف قد كانت مواتية حسب تقدير

---

[40] حيدر حسن الصديق، (1996م)، دور منظمة الأمم المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد، دار الأصالة، الخرطوم، صفحة 43.

الكرملين لنقل التجربة الاشتراكية إلى البلدان الإسلامية وتلك التي خرجت مهزومةً من الحرب، والتي لا توجد صعوبة في جرِّها إلى المعسكر الشيوعي بحكم حاجتها إلى الحماية والدعاية.

ولا يمانع الاتحادُ السوفيتي في بسط هذه الحماية إذا ما انصاعت هذه الدولُ لأوامر موسكو، ودانت بالنظرية الماركسية، وتخلت عن عقيدتها الإسلامية التي ما قامت النظرية الماركسية إلا لضربها وضرب العقائد المشابهة لها القائمة على أساس الأديان السماوية [41].

وفي تلك الأثناء كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد خلصت إلى نتيجة مشابهة مفادها أنَّ الفرصة قد أصبحت مواتيةً لفرض التبعية على عدد من الدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا حتى لا تفلت الفرصة من أيدي القوى الكبرى. وكذلك يمتد فرض التبعية إلى بعض الدول الأوروبية التي تُعتبرُ في عداد المستضعفين حتى لا تقع لقمةً سائغةً في يد الدُبِّ الروسي. وأكثر المناطق التي فكرت الولايات المتحدة في التركيز عليها في تلك

---

[41] تعتبر النظرية الماركسية أن الدين أفيون الشعوب. وقد جات هذه العبارة في كتاب رأس المال الذي وضعه كارل ماركس وطرح من خلاله نظرية الاشتراكية العلمية التي تقود إلى خلق المجتمع الشيوعي.

المرحلة هي بلاد الشرق الأوسط. وقد سجلت الوكالة الأمريكية أسباب ذلك الاهتمام في ثلاث نقاط حسب رؤيتها وهي:

أولاً: إنَّ أنظار الدب الروسي بدأت تتجه نحو هذه المناطق خصوصاً بعد نجاح تجربة غرس الخلايا الشيوعية في تلك الدول حسب الخطة المرسومة التي تمَّ توزيعها على البلاد الإسلامية ابتداءاً من شهر ديسمبر عام 1917م أي بعد شهرين فقط من نجاح الثورة البلشفية في الاستيلاء على مقاليد السلطة في روسيا القيصرية. وكان متوقعاً أن تؤتي هذه التجربة أُكُلها في غضون عقدٍ واحدٍ من الزمان.

ثانياً: لا بد من السيطرة الكاملة على الممرات الملاحية الآمنة في خليج السويس، والبحر الأحمر، ومنطقة الخليج العربي الغنية بثرواتها النفطية، والتي تتكون من دويلات صغيرة يسيطرُ عليها نظامُ الخلافة القائم على أسلوب توارُث الحكم المستمد بدوره من النمط الإسلامي الكلاسيكي [42].

---

[42] عون الشريف قاسم، (1980م)، الإسلام والثورة الحضارية، فصل الثورات والدين، دار القلم، بيروت، صفحات 99-102.

ثالثاً: عدم السماح بعودة مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية بعد انحسار الاحتلال الأوروبي الذي بات وشيكاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية 1945م.

وبتلك المفاهيم رسمت وكالة الاستخبارات الأمريكية خطتها للسيطرة على هذه المناطق بغض النظر عن إرهاصات الخلاص التي بدأت تلوحُ في الأُفُقْ لدى المسلمين، ونزعة التحرر التي بدأت تستشري في معظم شعوب العالم بعد انحسار موجة الاستعمار التقليدي وانقضاء سنوات الحرب.

وإذا كانت تلك الأسباب التي أعلنتها الوكالة قد أقنعت البيت الأبيض الأمريكي على تبني الخطة والتعجيل بتنفيذها بعد عام 1945م إلا أنَّ هناكَ أسباباً لاحقةً قد جدَّتْ، وهي أهمُ بكثير من تلك التي تضمنتها الوثيقة.

وظهرت دولة إسرائيل في عام 1948م ككيانٍ جديد في فلسطين واعترفت بها بعض الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا، مما استدعى فرضَ هيمنةٍ جديدة على العالم الإسلامي بغرض حماية الدولة الصهيونية الجديدة والحفاظ على الكيان

اليهودي الذي أقام الدولة على أنقاضِ المقدسات الإسلامية وعلى رأسها القدس الشريف والمسجد الأقصى. ثم ظهرت أهمية السلاح تلقائياً بسبب تنامي روح القتال التي ولدتها حركة قيام الدولة الصهيونية. وتبع ذلك أهمية الهيمنة على منابع النفط الغنية في الخليج وشمال أفريقيا، مما استدعى أن تركز الولايات المتحدة جهودها لاحتواء هذه المناطق.

ولم تكن الولاياتُ المتحدة هي الوحيدة التي ارتأت أنْ تنافس الروس على المنطقة للأسباب الكثيرة التي يعرفها كل المراقبين لمسار السياسة الدولية، وإنما أثار بروز هذه المناطق في الساحة الدولية رغبة الكثير من الدول الأوروبية في استعادة هيمنتها على المنطقة أو التمسك بما في يدها حتى لا تترك المسرح للأمريكيين أو السوفيت وحدهم يتبارون فيه بدون منافس أو شريكٍ ينالُ ما ينالون من هذه الدول.

لهذه الأسباب أصبح الصراعُ على كسب هذه البلاد الإسلامية واحتوائها فكرياً وسياسياً هماً كبيراً شغل بال الدول الكبرى بشكل أكبر من فترة الاستعمار القديم. حيث إنَّ كل دولةٍ من الدول العظمى أصرت أنْ تخلق لها عدداً من الأحلاف الاقتصادية والسياسية والعسكرية في ما سُميَ ببلاد العالم الثالث بغرض تأمين

مواقفها المستقبلية في حالتي الحربِ والسِلْم [43]. وقد يقول قائلٌ إنَّ المواثيق الدولية والاتفاقات المبرمة بين بعض الدول إلى جانب العلاقات المتطورة بين كثيرٍ من الحكومات الإسلامية والبلاد الغربية قد حدَّت من ظاهرة الهيمنة الاستعمارية على الشعوب وحرَّمَتْ الممارسات الاستبدادية والقمعية تجاهها بشكلٍ كبير.

ولكنَّ الواقعَ يؤكدُ أنَّ هذه القوى الاستعمارية لم تفعل شيئاً غير تبديل الأسلوبِ القديم بأسلوبٍ جديد أكثر حنكةً، حيثُ تبنَّت أشكالاً أخرى من السيطرة على هذه الثروات من خلال التحكم في أموال البلاد الإسلامية بإيداعها قسراً في المصارف ومؤسسات التمويل الغربية.

والمعروفُ أنَّ البلاد الإسلامية تنتجُ 80% من نفط العالم، وتبيعُ معظمه للبلاد المستهلكة التي على رأسها البلاد الغربية، ثم سرعان ما تضع هذه الأموال في المصارف الغربية التي تستخدمها في تنمية وتطوير آليات الغرب، وفي الأعوام التالية تأتي هذه الدولُ بنفطٍ جديد فتُعطى من نفسِ أموالها التي هي في المصارف الغربية، ولكنها تظل في نفسِ المصارف ليكون المستفيدُ من المال والنفط

[43] فينس باكارد، (1972م)، المجتمع الأمريكي عارياً، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار التأليف والنشر، صفحات 31-34.

وعائدات الأرباح هو البلاد الغربية. وهي البلاد التي استعمرت العالم الإسلامي على مدى السنوات، ثم سمحت لنفسها أن تملك حق تجميد هذه الأموال الإسلامية وقتما تشاء وبأي حُجةٍ تراها مُناسبة مثل وجود خطر داهم، أو انتهاك حقوق الإنسان، أو إيواء الإرهاب الدولي وغيرها من العبارات التي أصبحت أُسطواناتٍ مكررة في وسائل الإعلام الغربية ضدَّ المسلمين. وهي بكل أسف لا تُستخدمُ إلا مع المسلمين. في حين لا ينبس الغرب ولا إعلامُهُ بكلمة نقدٍ واحدة ضدَّ المسيحيين مهما تجبروا ومهما مارسوا من إرهابٍ وتنكيل بالمسلمين أو غير المسلمين.

وعلى سبيل المثال عندما اندلع القتال العنيفُ في شمال آيرلندا وانخرط فيه الجيش الآيرلندي السري ومناوئوه، وأسفر عن إقحام الفوارق الدينية بين الطائفتين المسيحيتين في بريطانيا، وتمَ اغتيالُ العشرات من الأبرياء، وتدميرُ المساكن، وتفجير القنابل، لم يصف أحدٌ من الغربيين تلك التحرشات والاغتيالات بأنها إرهابٌ مسيحي، وإنما اعتبروها مناوشاتٍ بين مختلفين سياسياً.

وكذلك عندما حدث انفجارُ قنبلةٍ فى أحد المباني التابعة للحكومة الأمريكية فى ولاية أوكلاهوما كان أول ردِّ فعلٍ رسمي من المسئولين الأمريكيين على الحادث هو أنَّ ذلك التفجير عملٌ

إرهابىٌ إسلامىٌ يضافُ إلى أعمال الإرهابيين المسلمين. وقامت الحكومةُ بإجراء التحقيقات المستفيضة التي أظهرت أنَّ الفاعل لم يكن مسلماً وإنما كان مسيحياً. وعندئذٍ تجاهل البيتُ الأبيض هوية الجاني الدينية، ولم يقل أحدٌ إنَّه الإرهابُ المسيحي أو الإرهابُ الكاثوليكي أو البروتستانتي.

وبنفس القدر كان إرهابُ المسيحيين الصربيين فى البوسنة والهرسك. حيثُ اغتصب المسيحيون وسحلوا عشراتُ الألوفِ من المسلمين فى البوسنة ثم ذبحوهم من الوريد إلى الوريد، وفاحت روائحُ الجثث في كل مكان. وحينها أعلنَ صِربُ البوسنة بكلِ الوقاحةِ أنهم كانوا يُنفذون عملية تطهيرٍ عرقى لكى يحولوا دون قيام أى دولةٍ إسلاميةٍ فى أوربا.

وقامت القواتُ الأوربية بطوعها وإرادتها بتسليم الملاذات الإسلامية الآمنة للصربيين المسيحيين الذين أقاموا تلك المذابح على مرأى ومَسمعٍ من العالم.

ورغمَ ذلك سكتت أوروبا كلُها والولاياتُ المتحدة ومن ورائهم الإعلامُ الغربي عن وصف هذا التطهير العرقي بأنه إبادةٌ بشريةٌ تقودها الجماعاتُ المسيحية ضدَّ المسلمين رغم أنها لم تكن أيَّ شيءٍ غير ذلك. وعلى العكسِ من ذلك ظلَّ المسلمونَ مثارَ

الشكوكِ في كلِ كبيرةٍ وصغيرةٍ تحدثُ في العالم، إمعاناً في وصمهم بالصفات السالبة وتوبيخِهم لجأت الدولُ الغربية لإلصاقِ التهم بهم في كل جريرةٍ تُرتكبُ في بقاعِ العالم المختلفة سواءٌ كانت لهم يدٌ فيها أو لم تكن[44].

ومن خلال ذلك ظهرت العديدُ من العقوبات والتهديداتُ في قاموس السياسة الدولية الحديثة كالحصار والحظر الاقتصاديِ ووقف التسليح. ولكن للأسف لا تمارس هذه الأمور إلا مع البلاد الإسلامية، ولا تحدث عقوباتٌ اقتصادية إلا ضِدَّ البلاد الإسلامية، ولا يحدث انتقامٌ مسلح من دولة إلا إذا كانت من البلاد الإسلامية، ولا تُهدد دولةٌ بمنع التسلح إلا إذا كانت من البلاد الإسلامية، ولا يُفرض على دولة تحجيم إنتاجها إلا البلاد الإسلامية.

ورغم كل ذلك تشير الاحصاءات إلى أنَّ رؤوس الأموال الإسلامية هي الأكثر ادخاراً واستثماراً إلى اليوم في مصارف أمريكا وأوربا لاسيما سويسرا. وكل الملايين التي أودعتها الدول الإسلامية ظلت في هذه المصارف على مدى العقود الماضية دون السماحِ لها بسحبها تحت أي ظرف إلا بموافقة الدول الكُبرى. ولم يكن أمام

---

[44] أنظر: محاضير محمد، الإسلام الذي أُسيء فهمه، (1990م)، ترجمة عوض إبراهيم عوض، المركز العربي الأفريقي، كوالا لمبور، صفحة 40.

الدول الإسلامية إلا أن تواصل تعاملها مع مصارف الغرب وفقاً لهذه البروتوكولات التجارية الجائرة في معظمها، والتي وُقِّعت مع كل دولةٍ إسلاميةٍ على انفراد.

لم يلتفت أحدٌ لحجم الخسائر التي مُنيت بها البلاد الإسلامية من جرَّاء الحروب، والدفاعات المستمرة، والكوارث الطبيعية التي دمرت كثيراً منها في جنوب شرق آسيا وغيرها، والسببُ في ذلك أنَّ الصفقات الموقعة قد أملتها في كل الأحوالِ مصلحةُ الدول الغربية.

ولم تتغير سياسة التهديد والوعيد التي اعتمدتها هذه الدول الاستعمارية منذ القدم في قسر الدول الإسلامية لوضعِ مُدَّخراتها في مؤسسات المال الغربية. وقد كانت أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد شهدت تطوراً هائلاً في المجال الصناعي عقب نجاح الثورة الصناعية في إنجلترا التي انتقلت إلى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا [45].

وقد استدعى تسيير الميكنة الصناعية وتوفير المواد الخام والمعادن ولوج كثيرٍ من الأبواب واتخاذ كثيرٍ من التدابير والأساليب

---

[45] صلاح نصر، (1967م)، الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، صفحة 195.

المشروعة وغير المشروعة لتأمين هذه الاحتياجات. وكانت دول الغرب تعلم تماماً أنَّ كل هذا متوفرٌ في البلاد الإسلامية التي استعمرتها في الماضي.

وإذا كانت ظروف التخلف العلمي التي عانت منها حتى البلاد الغربية في القرون الماضية قد حالت دون الاستفادة الكاملة من هذه المستعمرات فإنَّ إفرازات التقدم العلمي الحاضر والتطور التقني الذي طرأ مع بدايات الثورة الصناعية قد أمليا استراتيجياتٍ جديدة تقومُ على أُسسٍ جديدة للسيطرة على هذه المستعمرات القديمة. حيثُ إنَّ من الضروري خلق أسواقٍ ومواقع استراتيجية لتسويقِ هذه المنتجات، وخلق دعايةٍ لها في أوساط هؤلاء الأتباع المستهلكين عندما تكونُ جاهزة للعرض [46].

ولم يكن أمام الدول الأوروبية سوى خيار واحد لتوفير هذه المعطيات وهو اللجوء للاستعمار بشكلٍ جديد يمكن قبوله أو فرضه على الدول المستضعفة، بل ويمكن تبريره إذا ما دعا الحال في المحافل الإقليمية والدولية. ولذلك كان القرارُ الذي اتخذته هذه الدول هو أن تدينَ المستعمرات الجديدة بالولاء الكامل حتى لا ينفرط عقد الهيمنة وتدخل الدول الكبرى في معارك جديدة فيما بينها

---

[46] المرجع السابق، صفحة 135.

من أجل الحفاظ على المواد الخام أو الوقود. وتقررَ أن تُستخدمَ وسائلُ الاتصالِ الجماهيرية بشتى أشكالها المقروءة والمسموعة والمشاهدة بشكلٍ ذكي ومدروس من أجل إقناع هذه الدول الصغيرة بالواقع الجديد وتحييدها تجاه هذا الأمر المفروضِ عليها للقبول به في نهاية المطاف. ولذلك ظلّ دورُ الإعلام الغربي هو تزيين هذه العلاقات الجديدة بين الدول الصغيرة والدول الكبرى، وتحذير أي بلدٍ يحاولُ الفكاك من ربقة هذا النظام الجديد.

وحرصت كل دولةٍ أوربية على فتح قنواتٍ إذاعية توجهها من أراضيها إلى مستعمراتها القديمة بلغاتها المحلية بغرض خدمة هذا التحييد وعمليات غسيل المخ المستمرة لهذه الشعوب. وكان نصيب المسلمين من هذه التصرفات هو نصيب الأسد خصوصاً البلاد الناطقة باللغة العربية.

كانت **(إيطاليا)** هي أول دولة من خارج العالم العربي استخدمت اللغة العربية في إذاعتها في عام 1932م لأغراضٍ سياسية، بإيعازٍ من **(موسوليني)** الذي تربع على عرش السلطة في عام 1921م فارضاً هيمنته من خلال القوة التي تمتع بها وتميز بها عهده. وكان الدافع له على ذلك هو تركيبته الشخصية، حيث كان له اهتمام شخصيٌ كبير بالدعاية والإعلام السياسي بحكم أنه كان

صحفياً في الأصل قبل أن يكون زعيماً سياسياً وعسكرياً لبلاده [47].
وساعد في ذلك الأمر كونُ إيطاليا من الدول ذات النفوذ التوسعي الذي شغل بال أوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وكانت إيطاليا تفكر جدياً في إقامة حملة عسكرية على الحبشة مخترقة بذلك عدداً من الدول العربية، مما جعلها تفكر في التقرب إلى العرب بلغتهم. وقادها ذلك التفكير إلى إنشاء إذاعة **(راديو باري)** لتذيع برامجها العربية من مدينة **(باري)** الواقعة على بحر الأدرياتيك.

وكان قرار إنشاء هذه الإذاعة قد صدر بتوقيع موسوليني نفسه، وتمَّ توجيهها إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وبعد خمسِ سنواتٍ من ذلك أنشأت هيئةُ الإذاعة البريطانية في الثالث من يناير عام 1938م أكبر قسمٍ عربي في أوروبا قاطبةً.

ولكي تصل البرامج العربية إلى كل الوطن العربي فقد أنشأت الهيئة محطات تقوية في جزيرة قبرص وماريسا. وبالفعل

---

[47] كان موسوليني صحفياً بصحيفة (إيطاليا الشعب)، ثم عمل رئيساً لتحرير صحيفة (إلى الأمام). وبعد ظهور نفوذه السياسي أنشأ أول وزارةٍ للثقافة الشعبية كانت مهمتُها كما أعلنها أنْ تُعيدَ أمجادَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ السليبة.

أصبح التقاطها سهلاً في كل أنحاء الوطن العربي. وظلت هذه الإذاعة مهتمةً بأخبار العالم العربي خصوصاً الأحداث الساخنة التي مرت به عبر السنين كاغتصاب فلسطين وحرب 1967م وحرب أكتوبر 1973م وحرب الخليج 1991م وغيرها.

وكان من أول ما فكر فيه القائمونَ على القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية في عام 1938م أن يستقطبوا عدداً من الأدباء والمفكرين واللغويين العرب ليكونوا أعضاءاً ثابتين في السلك الوظيفي لهذه الإذاعة.

وبالفعل فقد نجحوا في استقطاب عددٍ من كبار الأساتذة ذوي الكفاءة والدراية وأمسكوا بزمام الأمور. وبالطبع فإنهم يعملون تحت إدارة البريطانيين الذين يمسكون بدفة الإدارة[48].

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد تأخرت في توجيه برامج إذاعية للعالم العربي، حيث استخدمت اللغة العربية كلغة رسمية في إذاعة صوت أمريكا من واشنطن لأول مرة في عام 1951م. ولما كانت أمريكا تسعى لاستقطاب العرب اهتمت بهذه الخدمة العربية،

---

[48] من الذين استقطبتهم هيئة الإذاعة البريطانية آنذاك: **(حسن الكرمي)** أستاذ اللغويات الشهير، والكاتب الروائي المعروف **(الطيب صالح)**، والصحفي الذي أُغتيل بأمرٍ من معمر القذافي عندما كان خارجا من أحد مساجد لندن **(محمد مصطفى رمضان)**، والشاعر الأديب **(حسن عباس صبحي)** وغيرهم من مجيدي اللغة العربية.

وطورَّت برامجها بشكل ملحوظ، وأنشأت محطةً خاصةً للتقوية في جزيرة رودس. واهتمت هذه الإذاعة بالخدمات الدعائية لأمريكا التي أصبحت سمةً مُميزةً لها. ووضعت من خلالها العديد من البرامج الدعائية للنظام الأمريكي[49].

وقد فعلت روسيا نفس الشيء ولحقتها الصين التي أدخلت اللغة العربية في خدماتها الإذاعية وظلت تذيع بها لمدة 145 ساعة أسبوعياً. ونفس الشيء تكرر في فرنسا وألمانيا والبرتغال وغيرها من الدول الاستعمارية، حتى ظهرت بعد ذلك العديدُ من الإذاعات التي استخدمت اللغة العربية في قارتي **(آسيا)** و **(أوربا)** لأسبابٍ اختلفت قليلاً عن أسباب المستعمرين ولكنها لم تبرح رغبة هذه البلاد في تمتين أواصر العلاقات بينها وبين الدول الإسلامية لأهدافٍ شتى. ومن هذه الإذاعات على سبيل المثال:

- إذاعة ألمانيا التي تذيع برامجها العربية لمدة 140 ساعة أسبوعياً.

---

49 تُعنى الفقراتُ الدعائية بطرح السياسة الأمريكية وتزيين دورها تجاه العالم الخارجي لاسيما منطقة الشرق الأوسط.

- إذاعة هولندا التي تذيع برامجها العربية لمدة 140 ساعة أسبوعياً.
- إذاعة مونتكارلو التي تذيع برامجها العربية لمدة 140 ساعة أسبوعياً.
- إذاعة اليابان التي تذيع برامج باللغة العربية لمدة 28 ساعة أسبوعياً.
- إذاعة رومانيا التي تذيع برامجها العربية لمدة 28 ساعة أسبوعياً.
- إذاعة سويسرا التي تذيع برامجها العربية لمدة 28 ساعة أسبوعيا.

ثم ظهرت بعد ذلك شبكاتُ التلفزيون والأقمار الصناعية والإنترنت لتُستخدم بشكلٍ سافرٍ ومكشوف لتحقيق كثيرٍ من المآرب السياسية التي انصب معظمها في قالب الاستعمار الحديث.

شكل الهيمنة بعد أزمة الخليج

كانت أزمة الخليج 1990م سانحةً أخرى للدول الغربية تغلغلت بموجبها في البلاد الإسلامية بالشكل الذي تريده والذي هيأته لها ظروفُ غزو صدام حسين لدولة الكويت. وانتهزت فرصة ذلك التدخل فتسارعت لنقل ترساناتها العسكرية بدعوى تحرير

الكويت وحماية دول الخليج من الخطر العراقي. وكانت دول الغرب لا سيما الولايات المتحدة تنظر إلى أبعد من مجرد المعارك العسكرية التي تنتهي بالنصر أو الهزيمة. حيث إنَّ لها أهدافاً ومطامعَ اقتصاديةً واستراتيجيةً واضحة ظلت تحلمُ بها منذُ أن تقلصت موجةُ الاستعمار التقليدي في سبعينيات القرن العشرين المنصرم.

وتتمثلُ تلك المطامع في إحكام السيطرة على موارد النفط حتى لا يكون عرضةً في المستقبل لأي شكلٍ من المساومات العسكرية أو السياسية ضدَّ الغرب كما حدث في حرب أكتوبر عام 1973م[50]. وقد اقتضى ذلك العملَ على إقناع جميع رؤوس الأموال البترولية لتكونَ وديعةً في البنوك الأمريكية حتى تكون تحت الرقابة الأمريكية ولا تُستثمر في تطوير التقنية العسكرية أو العلمية بالمنطقة ضدَّ رغبة الولايات المتحدة.

وهذا بدوره يقتضي وضعَ جميعِ دول المنطقة تحت الرقابة المباشرة حتى لا تكتفي ذاتياً باستغلال مواردها ومنتجاتها الصناعية أو الزراعية للحد الذي قد يُغنيها عن الغرب. كما أنَّ تنفيذَ هذا

---

[50] محمد حسنين هيكل، (1992م)، حرب الخليج أومهم القوة والنصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.

المخطط الغربي قد استدعى خَلْقَ فجوةٍ في الإمدادات الاقتصادية والعسكرية تجعل المنطقة دائماً تحت رحمة الدول المانحة. ووفقاً لذلك فقد آلت الولايات المتحدة ومن ورائها الدول الغربية على نفسها أن تحارب اقتصاد هذه الدول بشتى الأساليب حتى تجعلها تابعةً لها ومؤتمرةً بأوامرها. فلجأت إلى فرض حظر اقتصادي وقيود جمركية وغير ذلك من أساليب الضغوط.

وفي نفس الوقت منعت تصدير السلع الاستراتيجية وقطع الغيار ومواد التصنيع إلى العديد من الدول الإسلامية ومنها العراق وليبيا وفلسطين والسودان. كما أوقفت المعاملات التجارية مع هذه الدول وغيرها من البلاد التي اتخذت مواقف معاديةً لدخول الترسانات الغربية إبانَ أزمة الخليج. وفُرِضَ الحظر الجوي والاقتصادي والسياسي على العراق.

كما فُرِضَ حظرٌ مماثل على ليبيا إثر شكاوى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ضدها والتي طالبتها بتسليم اثنين من المواطنين الليبيين هما عبد الباسط علي المقراحي والأمين خليفة فحيمة لمحاكمتهما على تفجير طائرة بان أمريكان Pan American فوق سماء مدينة لوكربي الأسكتلندية في عام 1988م. وكانت تلك القضية فُرصةً ذهبية انتظرتها تلك الدول للانقضاض على دولة

ليبيا القذافي التي رفضت الانصياع لسياسات الغرب في البداية ولم تستجب للشروط التي فرضتها الولاياتُ المتحدة على الكثير من البلاد الأخرى سواء كانت إسلامية أو عربية. ورفعت ليبيا قضيةً ضدَّ بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أمامَ محكمة العدل الدولية في لاهاي.

إلا أنَّ الولايات المتحدة سارعت باتهامها باستخدام محكمة العدل الدولية لتقويض قرار مجلس الأمن الذي قضى بفرض عقوباتٍ عليها بقطع خطوط الملاحة الجوية معها ما لم تُسلم المواطنين المتهمين بتدبير تلك الحادثة.

وبالطبع لم تتمكن ليبيا ولا غيرها من تغيير الأوضاع لأنَّ الدول الكبرى استطاعت أن تسيطر على قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من خلال تهديد الدول دائمة العضوية بالتأثير على مصالحها بالتلويح بالعصا الغليظة.

وبدت المنظمة الدولية وكأنها إحدى الأجهزة التنفيذية التابعة للبيتِ الأبيض أو الدول الحليفة لأمريكا. وارتفعت أصواتُ الانتقاد في البلاد الإسلامية وغيرها من دول العالم المستضعفة مما اعتبروه استغلالاً للمنظمة الدولية وتعسفاً من الأمم المتحدة تجاه هذه القضية وغيرها، في الوقت الذي تتغاضى عن كثير من

القضايا المهمة والأكثر إلحاحاً في بعض دول العالم. حتى أنَّ حكومة ماليزيا قد طالبت الأمين العام للأمم المتحدة يومها الدكتور بُطرس غالي بالاستقالة من منصبه في مايو 1994م بدعوى أنَّ المنظمة قد فشلت في حل قضايا الظلم الظاهرة ضدَّ المسلمين في البوسنة والهرسك [51].

ومما لا شكَّ فيه أن الأجيال الحاضرة قد شهدت تسلطاً وأطماعاً لم تَقِلْ عن أطماع الماضي. وبدت هذه الأطماع تُسفر عن وجهها بشكل ملحوظ في عالم اليوم لتؤكد أنَّ الأمة الإسلاميةَ موعودةٌ بإعادة التاريخ في مواجهة الدول الصليبية. ولبست قوى الاستعمار الحديثة هذه المرة لبوساً مغايراً تَسَتَّرَ خلفَ ادِّعاء الحفاظِ على حقوق الإنسان والدعوة إلى خلقِ أنظمةٍ ديموقراطية في البلدان الصغيرة على نمط الدول الغربية.

وتنادت القوى الغربيةُ الكبرى وعلى رأسها الولاياتُ المتحدة الأمريكية إلى خلق واقعٍ عالميٍ جديد يقوم على التبعية للنظام الليبرالي الغربي. ولم تكن هذه الأطروحات على سبيل الخيار أو الدعوة لتقديم البدائل الأفضل، وإنما فُرضت قسراً على حكومات الدول الإسلامية التي أريد لها أن تتبع سياسات القوى الكبرى. وإذا

---

[51] New Straits Times, (5 May 1994), Kuala Lumpur, Malaysia

كانت الولايات المتحدة في الماضي قد عانت من ويلات الاستعمار الذي قضت عليه حرب التحرير الأمريكية في عام 1775م فإنها اليوم تبدو وكأنها تريد الانتقام من ذلك الماضي الأليم. ليس بتركيعِ الذين استعمروها وإنما بإخضاعِ الدولِ الإسلامية المستقلة التي تحاول أن تخرج من ربقة التخلف وترتاد آفاق التقدم والازدهار مثلها مثل بقية دول العالم.

أظهرت الولايات المتحدة هذه النوايا العدوانية تجاة أي قُوةٍ في العالم تُرِيدُ أنْ تُضارِعَها هذه السيطرة على مقاليد الأمور حتى ولو كانت هذه القوى حليفةً أو صديقةً لها. وقد كشفت مسودة دليل التخطيط الدفاعي الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية في عام 1992م عن هذه النوايا حيث جاء فيها:

[إنَّ هذا الدليل الخاص بالتخطيط الدفاعي يتناول الوضع الذي استجد في صورة متغيرات جوهرية نتيجة لانهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط إمبراطوريته داخلياً وخارجياً وانحسار الشيوعية كنظرية ذات طموحات وتأثير واسع على الساحة العالمية. ولقد تشكلت الظروف الدولية الجديدة أيضاً بفضل انتصار الولايات المتحدة وحليفاتها في مواجهة العدوان العراقي، وذلك في أول صراع أعقب انتهاء الحرب الباردة. وكان حدثاً حاسماً في تحديد

موقع الولايات المتحدة من الزعامة العالمية. وعلاوة على هذين الانتصارين تحقق لنا نصرٌ آخر أقل وضوحاً، وهو انضواء كل من ألمانيا واليابان في إطار نظام أمن جماعي بقيادة الولايات المتحدة وإنشاء نطاق سلام ديموقراطي] [52].

لقد ظلت أطماع الغرب الاقتصادية والسياسية والفكرية مسيطرةً على تفكير قادته على مر السنوات. ورغم أنَّ ظروف العالم السياسية قد تغيرت تغيراً كبيراً خلال العقود الأخيرة، إلا أنَّ العقلية الاستغلالية للغرب ظلت على ما كانت عليه. بل وازدادت صلفاً عندما أطلَّت برأسها من جديد في ظلِّ غياب الوحدة والتماسك بين أبناء الأمة الإسلامية.

وأصبحَ الدافعُ هذه المرة هو الاستيلاء على عقولِ أبناء الأمة الإسلامية وأموالها، خصوصاً وأنَّ معظمها قد ظهرتْ كقوىً اقتصاديةٍ مؤثرة مثل دول الخليج، والعراق، وليبيا، والسعودية، والسودان، وإيران، وماليزيا، وباكستان، وإندونيسيا، وبروناي، وغيرها من الدول الغنية والمصدرة للبترول الذي أصبح السلعة الاستراتيجية الأولى في عالم اليوم الذي عرف قيمة الطاقة وبدأ يتنافس من أجل الحصول عليها بأي ثمن. ولما كان محور النفط العالمي يتركز في

---

[52] مجلة المجلة، العدد 634 – 1،7/أبريل/ 1992م، الشركة السعودية للأبحاث والنشر.

البلاد الإسلامية فإنَّ هذه البلاد ستظلُ محطَّ أنظار جميع المستعمرين القُدامى والجدد. وسيظلون يسعون للسيطرة عليها من خلال غسل الأدمغة، وتغيير المفاهيم الفكرية، وتحويل الاهتمام من أساليب الإسلام العتيقة في نظرهم إلى اقتصاديات السوق الحر. وسيسعون لتحقيق ذلك سواءٌ بتحييد هذه الدول دينياً، أوبعقد الصفقات الاقتصادية الجائرة معها، أو بإنشاء الأحلاف العسكرية. وإذا لم تُجدِ هذه الأساليب فيمكن فرضها بالتدخل السافر إذا دعت الضرورة.

رؤية الغرب للمسلمين

مما لا شك فيه أنّ المؤامرة الاستعمارية على الأمة الإسلامية ظلت على مر السنوات تلعب دوراً هداماً. وللأسف الشديد فإنَّ الكثيرين من أبناء هذه الأمة قد قدموا المساعدة لتنفيذ هذه المؤامرات التي تمثلت في محاولات طمس الهوية بغرض نشر معطيات الحضارة الغربية وفرضها على العالم أجمع.

وقد ترسخت عبر السنين في العقلية الغربية مفاهيم خاطئة عن الإنسان المسلم بنتها على أساسٍ من الاستقراء الخاطئ. فأصبح الإسلام لدى الإنسان الغربي يعني الإرهاب الفكري،

والتخلف الاجتماعي، والهمجية في السلوك، والرجعية في معاملة أفراد المجتمع لاسيما المرأة. وروجت العديد من الدوائر الغربية والصهيونية لهذه المفاهيم لعقودٍ طويلة، مُستغلةً بعض المظاهر الإسلامية كحجاب المرأة، وقِوامة الرجل، وتعدد الزوجات، وإباحة الطلاق، والدعوة إلى الجهاد، وغيرها من مظاهر السلوك الإسلامي الذي لا يروق لها.

وقد فرض الغرب على سائل الإعلام التابعة له أن تُروج لهذه الأباطيل بشتى الأساليب. فخرجت الأفلام السينمائية التي تصور المسلمين كقطيع من الأغنام أو كسرب من الرعاع. وكُتبت المقالات والمؤلفات التي تفضح كثيراً من الممارسات لدى الأنظمة الإسلامية وقادتها، مما ساعد على رسم الصورة الشوهاء للفرد المسلم.

ثم جاءت حملات التشكيك في العقل المسلم الذي لا يعرفُ غير الخمول والكسل حسب المنظور الغربي. ولعل الخوف من التعاليم الإسلامية المرتبطة في وجدان الغرب بالجهادِ ضدهم كانت سبباً في إزكاء تلك الدعاية المغرضة التي لم تستند إلى أي دليل من الواقع. وسعت الدوائر الغربية لطمس التاريخ الإسلامي، وزعزعة الثقة في نفوس المسلمين بالتركيز على تمجيد النظام

الفكري والسياسي والاقتصادي الغربي. وأنفقت المليارات من أجل تحقيق هذا الهدف.

❖❖❖

الفصل الخامس

❄❄❄❄❄

الاستعمار ومفهوم السيادة

الفصل الخامس

الاستعمار ومفهوم السيادة

❄❄❄❄❄

لفظ الاستقلال يُقصد به السيادة الوطنية وهناك مرحلة أولية من الاستقلال يُطلق عليها الاستقلال الداخلي ويُعرف كذلك بالحكم الذاتي Autonomy وهو إطلاقُ يد البلد فما يتعلق بشؤونها الداخلية التي يقتضيها تصريف الأمور اليومية البسيطة مع إبقاء السياسة الخارجية وشؤون الدفاع في يد الدولة المستعمِرة.

ولعلّ العنصر المكمل للاستقلال لدى كل الجماعات المناضلة من أجل حريتها هو عنصر السيادة. بدأ مفهوم السيادة يطغى على المجتمعات الإنسانية بشكل ملحوظ في زماننا الحاضر. ولعل مبعث هذه النزعة يعود إلى فترة الحروب الصليبية التي دامت ثلاثة قرون من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي بين الغرب المسيحي والشرق المسلم.

وكانت الغلبة في تلك الفترة للمسلمين على الصليبيين تحت تأثير ما عرفوه من الإسلام وما يتيحه من تفكير في وحدانية الله وحرية الفرد وحق الإنسان في شرح الكتاب المقدس وتفسيره. في

واقع الأمر لم تكن كل الأمم التي عاشت على وجه الأرض تعرف نظرية السيادة. فعلى سبيل المثال لم يكن الفقه الإسلامي يتعامل مع هذا المفهوم لأنّ السيادة في المفهوم العقدي لله وحده لا يشاركه فيها أحد.

أما السيادة بمفهومها الحديث Souverainete فقد نبعت أول مرة من أصل فرنسي. حيث استنبطها رجال الفكر الفرنسي الكلاسيكيون في العهد الملكي القديم أثناء كفاح الملوك في العصور الوسطى من أجل إقرار استقلالهم الخارجي إزاء الإمبراطور والبابا بغرض إقرار سلطتهم ومسئولياتهم داخل المملكة إزاء الحكام الإقطاعيين.

لقد استفادت تلك المجتمعات من مقاومة الظلم القائم باسم الكنيسة والله وفي مقاومة الرق وغيره من الممارسات الخاطئة التي أذكت جذوتها فلسفة الطبقات الراقية تحت ظلال الإقطاع ونرجسية ملاك الأراضي تجاه الطبقات الفقيرة من التكنوقراط والفلاحين وبقية البسطاء الذين لا يملكون قوت يومهم.

وكنتيجة حتمية لذلك تأصلت في الناس نزعة العودة إلى الأصول واحترام السيادة البشرية للأمم، والتي تطورت تلقائياً لتؤدي في نهاية المطاف إلى تأسيس سيادة الدولة. وقد تبلور من خلال

تلك النزعة السيادية مفهوم سياسي للسيادة يتحقق بتحقق ثلاثة عناصر أساسية هي: الشعب، الدولة، النظام السياسي. وقد أصبحت السيادة في السنوات التي أعقبت الطفرات البشرية في الشرق والغرب تبدو وكأنها العنصر المكمل لتحقيق الذات. فالدولة التي تريد تحقيق ذاتها لا بد لها من تأطير كيانها السياسي المستقل. ولا بد أن تكون لها ثقافتها الخاصة ولغتها وتقاليدها ومقوماتها الحياتية التي يمثلها مثلث الاقتصاد والتعليم والصحة.

وحركات الاستقلال في العالم ليست معزولةً عن التطور الطبيعي لمفهوم السيادة والرغبة الوطنية في نيل الحريات. ولذلك شهدت جميع المستعمرات في العالم روحاً من النضال الوطني ضد المستعمرين انتشر في كل بقاع الدنيا حيث إن فقدانُ فرنسا لمستعمراتها في الهند وكندا في النصف الأول من القرن الثامن عشر تبعه استقلال الولايات المتحدة من بريطانيا في الربع الأخير من ذلك القرن أبريل 1775م.

وبعد أن قامت حرب الاستقلال الأمريكية صدر على الفور وفي نفس الفترة إعلان الاستقلال الذي أقره مؤتمر عام كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية Continental Congress في الرابع من يوليو عام 1776م. وتنامت الروح القومية في سكان معظم المستعمرات

خلال القرن التاسع عشر، فتمكنت بعض بلاد أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية من طرد الاستعمار ونيل استقلالها من دولتي إسبانيا والبرتغال. ونالت مصر استقلالها في 28 فبراير 1922م بعد الثورة المصرية التي أشعلها الوطنيون بقيادة سعد زغلول ورفاقه عام 1919م.

ولما تفجر الوضع وازداد سخط الوطنيين اضطرت بريطانيا للانسحاب وأعلنت انتهاء الحماية البريطانية على مصر والاعتراف بها دولةً مستقلة. كانت لبنان ترتبط إلى حد كبير بسوريا وفقاً لسياسة الانتداب التي ابتدعتها القوى الاستعمارية بغرض المحافظة بها على شكلٍ من أشكال الهيمنة على مستعمراتها إذا قُدِّرَ لها أن تخرج منها طوعاً أو كُرهاً.

وكانت الثورة السورية التي اندلعت في عام 1925م قد رمت بظلالها على لبنان، وثار الوطنيون ضد تعسف الفرنسيين. مما أدى بالمفوض السامي الفرنسي **(دو جوانفيل)** إلى إصدار دستور لبناني يضع البلاد تحت سيطرة أبنائها.

ودعا المجلس التمثيلي النيابي إلى سن دستور 1926م الذي كان بداية الحكم الوطني في البلاد. وتعثر المسار السياسي بتعليق الدستور عدة مرات. ثم عادت الأمور إلى نصابها مع

أحداث الحرب العالمية الثانية 1939م. حيث حملت الدولة بعد ذلك اسم **(الجمهورية اللبنانية المستقلة)**. وكان الفرنسيون في سوريا يماطلون في الخروج من البلاد حتى قامت الثورات العارمة التي انتزعت الاستقلال من فرنسا عام 1946م.

واستقلت اليمن في عام 1934م. حيث عقدت معاهدة مع بريطانيا نالت بموجبها استقلالها التام تحت تاج مملكة اليمن. ولم تكن اليمن يومها دولةً موحدة، فتأخر استقلال الشق الجنوبي منها وعاصمته (عدن) حتى عام 1967م حيث أصبحت جمهوريةً برلمانيةً مستقلة.

أما في ليبيا فقد انتهت الوصاية في يونيو 1952م. وأصبحت دولةً مستقلة تحت قيادة الملك السنوسي. وقد شهدت البلاد نضالاً مستميتاً ضد الإيطليين منذ الحرب العالمية الأولى 1914م. وكان سكان طرابلس قد حققوا استقلالهم في ذلك الوقت المبكر، إلا أنه لم يُعمر طويلاً، حيث عاد الاحتلال مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

وأصبح السنوسي أميراً على برقة 1920م بموجب معاهدة بينه وبين الإيطاليين تؤكد على الحفاظ على الثقافة العربية والدين الإسلامي. وبعد ذلك طالب أهالي طرابلس بالمعاملة بالمثل

وبالاتحاد مع برقة. وعندئذ شعر الإيطاليون بخطورة الموقف الذي نجم عن تصرفهم مع السنوسي فأبعدوه إلى خارج البلاد. واستمرت الثورة بقيادة المناضل الكبير عمر المختار.

لقد كان عمر المختار رمزاً للنضال العربي والإسلامي. حيث لقنّ المستعمرين درساً قاسياً في الوطنية والاستبسال حتى استشهد على يد العصابات الاستعمارية التي حكمت عليه بالموت غدراً وأعدمته وسط الآلاف من أبناء شعبه الذي رفع معه رايات النضال والنصر وذاق في النهاية حلاوة الاستقلال.

في اليوم الأول من يناير 1956م نال السودان استقلاله من بريطانيا بعد استعمار دام زهاء الثماني وخمسين سنةً. لقد أعلن الزعيم إسماعيل الأزهري الاستقلال من داخل قبة البرلمان السوداني بعد معارك سياسية وعسكرية انتظمت كل بقاع الوطن.

وقد كان لمؤتمر الخريجين العام 1934م دور كبير في إزكاء روح النضال الوطني ضد الحكم الاستعماري حتى تتوج باكتمال الجلاء في عام 1956م. وفي نفس العام 1956م نالت الأردن استقلالها بعد مطاولات ونضال طويل من بريطانيا بعد أن أُلغيت المعاهدة التي وقعتها بريطانيا مع الأردن 1928م في عهد حكومة الأمير عبد الله. وكانت تلك المعاهدة قد فرضت بموجبها

الوصاية البريطانية على الدولة. وفي عام 1956م أيضاً نالت المغرب استقلالها بعد ممارسة الحكم الذاتي الذي بدأ في نوفمبر 1955م. وقد أعادت إسبانيا معظم الأراضي التي كانت في حوزتها إلى السيادة الوطنية المغربية.

في 1957م نالت تونس استقلالها كنتيجة لضغوط المؤتمر الوطني 1946م الذي شاركت فيه جميع الفعاليات السياسية التونسية والقوى الوطنية. وكان من ثمار ذلك المؤتمر الوطني المهم أن نالت البلاد الحكم الذاتي 1954م، الشيء الذي مهد للاستقلال الذي قاده الزعيم الوطني الحبيب بورقيبة والذي ظل زعيماً للبلاد طوال السنوات التي أعقبت استقلال بلاده.

كانت العراق تحت الوصاية البريطانية حتى نالت استقلالها التام في يوليو 1958م عندما أطاح العراقيون بالملكية ومزقوا وثائق وبنود حلف بغداد 1955م الذي شاركت فيه بريطانيا من جهة وكل من العراق وإيران وتركيا وباكستان من جهة أخرى. ذلك لأن الوطنيين العراقيين كانوا يرون أنّ ذلك الحلف إنما خُلق لتركيز جميع السلطات في يد الاستعمار.

وفي عام 1961م استقلت دولة الكويت وتبعتها في نفس الفترة بقية دول الخليج العربية حتى اكتمل استقلالها جميعاً بنهاية

عام 1968م. وبعد عام من ذلك أي في عام 1962م نالت الجزائر استقلالها من فرنسا بعد كفاح مرير ونضال طويل لم يوجد له مثيل في التاريخ المعاصر.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية شهد العالم نشاطاً متزايداً للحركات القومية في معظم البلاد العربية والأفريقية والآسيوية لاسيما في دول شبه القارة الهندية. حيث كانت المستعمرات قد بدأت تغلي وتضيق بالبيض الذين جثموا على صدورها عشرات السنين.

وشعر المستعمرون بوطء الصراع المحتدم في نفوس الوطنيين في تلك الدول مما صعب معه الاستمرار في السلوك الهمجي للقوات المحتلة أو حتى الاحتفاظ بتلك المستعمرات في قبضتها. واضطرت الدول الاستعمارية تحت تلك الضغوط للإذعان لرغبات الجماهير الثائرة، وخرجت من المستعمرات مضطرةً إلى ذلك ليس رغبةً فيه.

وبموجب ذلك الخروج القسري للمستعمرين نالت معظم دول الشرق الأقصى استقلالها في تلك الفترة. حيث استقلت الهند وباكستان وسيلان والملايو وجزر إندونيسيا والهند الصينية. أما في قارة أفريقيا فقد استقلت كل دول الشمال كالجزائر وليبيا وتونس

والمغرب والسودان وغيرها حتى انحسر الاستعمار بكامله عن دول القارة وبقية دول العالم بنهاية عقد الخمسينات. مخلفاً جرحاً عميقاً تمثل في الآثار الاقتصادية والسياسية التي لم تكن إزالتها بالأمر الهين. وبدأت بعد ذلك إرهاصات الاستعمار الجديد الذي تمثل في الضغوط الاقتصادية والسياسية والآيديولوجية.

فلسفة حقوق الإنسان

كان الفرنسيون من أوائل الشعوب التي نادت بالحفاظ على الحريات الإنسانية بأشكالها المختلفة. فقد قدمت الثورة الفرنسية **(إعلان حقوق الإنسان)** عن طريق الجمعية التأسيسية الفرنسية في 26 أغسطس عام 1789م، أي بعد شهر ونصف من تحطيم قصر الباستيل. جاء الإعلان في 17 مادة، تضمنت مبادئ حقوق الإنسان والحريات. حيث جاء في ديباجته:

[يُولدُ الناس ويعيشون أحراراً متساوين في الحقوق، والفوارق الاجتماعية لا يُمكن أن تُبنى إلا على أساس المنفعة المشتركة].

ولعل التجارب الإنسانية التي عاشتها كل الدول المضطهدة والتي ذاقت مرارة الاستعمار قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك

حاجة الإنسان الملحة لحرياته الأساسية لاسيما فيما يتعلق باعتناق الديانة التي يراها والتعلم وممارسة حرياته في البيع والشراء والتملك والتنقل كيفما يشاء. وأصبحت غاية كل الهيئات السياسية في العالم هي صيانة حقوق الإنسان الطبيعية الثابتة والتي تتمثل في الحرية، والملكية، والأمن، ومقاومة الظلم.

وقد تبلور ذلك من خلال مقدمة وثيقة الاستقلال الأمريكية (1776م) التي جاء فيها: **[نقرر بهذا أنّ من الحقائق البديهية أنّ جميع الناس خُلقوا متساوين وقد وهبهم الله حقوقاً معينة لا تُنتزع منهم. ومن هذه الحقوق حقهم في الحياة والحرية والسعي لبلوغ السعادة].**

ووفقاً لهذا المفهوم ظلت فكرة الحرية مسيطرةً على عقلية الفرد الأمريكي كنتيجة حتمية للاطهاد والظلم والممارسات اللا أخلاقية التي ذاقها إبان فترة الاستعمار البريطاني. وقد أكد الرئيس الأمريكي **(روزفلت)** Rosovelt في أحد أحاديثه أمام الكونجرس The Congress في السادس من فبراير عام 1941م أنّ الحريات الإنسانية الضرورية هي حرية الكلام، حرية العبادة، التحرر من العوز، والتحرر من الخوف[53]. وكان مؤتمر فينا (1814-1815م) بين

[53] An Outline of American History , United States Information Agency , USA

الدول الأوروبية قد أرسى عدداً من المبادئ الإنسانية، على رأسها مبدأ السلام، الذي كانت الحاجة إليه ملحةً في أعقاب الحروب المدمرة.

وقد ظهر التعاون بين الدول والذي كان من أبرز نماذجه ما حدث بين الدول الثلاث (روسيا وبروسيا وبريطانيا). حيث وضع ذلك التعاون أساساً لسياسة المؤتمرات Congress System التي قامت على أساس التعاون الدولي المتواصل لبسط الحريات وتأكيد نمط الحياة المعاصرة التي تُفضي إلى رفاهية الناس قدر المستطاع، ودون تكديرٍ لمتطلبات الإنسان.

ولكنَّ هل تستطيعُ طبيعة العقلية الاستعمارية أن تفعل ذلك؟ بالطبع لا، فقد كانت العقلية الاستعمارية أكثر غطرسةً من أن تلتزم بالمواثيق والمعاهدات. وأحست بأنها لو التزمت بها فإن ذلك سيُلقي عليها تبعاتٍ كثيرة ويفرض عليها عدداً من الالتزامات.

وفشلت مقررات هذا المؤتمر بسبب هذه الغطرسة وتضارب المصالح الأوروبية التي وجدت في التوسع الاستعماري مخرجاً لها من أزماتها الاقتصادية.

كما ظهر في تلك الفترة ما سُمي بالحلف المقدس وهو الاتفاق الذي تم بين بعض الملوك الأوروبيين على مناصرة المبادئ

المسيحية، مما أدى في النهاية إلى استغلال هذا الاتفاق لتثبيت الأهداف التوسعية على حساب مبدأ الحريات [54].

فكرة القومية العربية

لقد تنامت فكرة القومية العربية بشكل أكبر خلال أزمة السويس وما أفرزته بعد ذلك من واقع سياسي وعسكري خيم على المنطقة العربية لفترة ليست بالقصيرة. وكانت مصر من أكثر الدول المنادية بخلق الوحدة بين الدول العربية على أساس القومية لا سيما في الفترة التي أعقبت ثورة يوليو 1952م وبطبيعة الحال فقد سعت إلى تأسيس كيان وحدوي نموذجي. فأعلنت قيام الوحدة مع سوريا التي استمرت لمدة ثلاث سنوات فقط (1958-1961م) وكانت تحت اسم **(الجمهورية العربية المتحدة)**.

وبعد ذلك تراجعت فكرة القومية العربية شيئاً ما في عام 1963م، كما ظهر من خلال محادثات الوحدة الشهيرة. وقد أعلن الزعيم الراحل **(جمال عبد الناصر)** تفاصيل فشلها بعد ذلك على الأمة العربية مفنداً مكامن الضعف ومكامن القوة في أجندة

---

[54] حسين جميل (1986م) حقوق الإنسان في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.

المحادثات التي شهدت حواراً صريحاً وعراكاً كلامياً مستفيضاً بين كل الأطراف المعنية بذلك الأمر. تجدد النداء والسعي للوحدة العربية القائمة على أساس القومية بعد قيام الثورة في ليبيا عام 1969م والإطاحة بالنظام الملكي الذي كان على رأسه الملك إدريس السنوسي.

واستمرت المساعي التي قادها زعماء الثورة لإقامة الوحدة العربية الشاملة. وقد نجحت تلك المساعي في بداياتها فأُعلنت **(الوحدة)** بين ثلاثة من الدول العربية هي **(ليبيا ومصر والسودان)** من خلال ما عُرف بميثاق طرابلس الذي وقّع عليه رؤساء الدول الثلاث **(جمال عبد الناصر وجعفر محمد نميري ومعمر القذافي)**. ولكن سرعان ما تقوض ذلك الميثاق وسط العواصف التي غيرت كثيراً من مجريات السياسة العربية في أوائل عقد السبعينات. وتوالت مساعي القيادة الليبية لإقامة الوحدة العربية.

وظهرت خلال سنوات القرن العشرين الأخيرة عدة تجارب لتحقيق الوحدة بين الدول العربية. فكان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة بقيادة الشيخ زايد بن سلطان. وضم اتحاد الإمارات كل دويلات الخليج العربي **(أبو ظبي، الشارقة، دبي، عجمان، أم القيوين، ورأس الخيمة)**. ولم توقع على الميثاق الذي نشأ بموجبه

ذلك الاتحاد بعض دول الخليج الأخرى مثل سلطنة عُمان ودولة قطر والكويت. إلا أن هذه الدول قد انضمت فيما بعد إلى مجلس التعاون الخليجي الذي نشأ في عام 1980م والذي يمثل شكلاً من أشكال التكامل الاقتصادي بين مجموعة هذه الدول الغنية بمنتجاتها النفطية والطبيعية والتي تمثل ثقلاً استراتيجياً مهم اً في المنطقة العربية.

وكانت هناك تجربة أخرى للتكامل الاقتصادي والسياسي بين مصر والسودان بدأت في أول الثمانينات. وأنشأت الدولتان العديد من مؤسسات التكامل التي سعت لتوطيد دعام الوحدة بينها في المستقبل.

لكنَّ هذه التجربة قد باءت هي الأخرى بالفشل. وتقوضت أركانها بعد الإطاحة بنظام جعفر نميري في السودان (أبريل 1985م). حيث كانت الفعاليات والأحزاب السياسية ترى في تلك التجربة محاولةً من حكومة نميري لتقوية نفسها أمام تيارات المعارضة الداخلية والخارجية.

ثم أعلنت أربعة من الدول العربية **(مصر، العراق، اليمن، وفلسطين)** مشروعاً للتعامل الاقتصادي كان متوقعاً أن تنضم إليه بعض الدول العربية الأخرى وكان على رأسها السودان. إلا أنَّ أزمة

الخليج قد جاءت لتطيح بالمشروع وتُغير خارطة التعامل السياسي لسنوات طويلة بعد ذلك. ثُم أقامت دول الشمال الأفريقي العربية مشروعاً وحدوياً ضم **(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)**. وكان هذا المشروع أيضاً عُرضةً للهزات والمشاكل خصوصاً بعد الاضطرابات التي قادت للتغييرات السياسية في الجزائر وتونس. وبعد ذلك أعلنت دولتا **(السودان وليبيا)** مرةً أخرى إقامة مشروع جديد للوحدة في عام 1990م من خلال اتفاقية للتكامل بين البلدين.

وفي عام 1990م أطلت على الساحة العربية من جديد مُبادراتٌ أخرى لتوحيد وضم شطري **(اليمن الشمالي والجنوبي)** في إطار واحد بعد أن كانتا دولتين منفصلتين هما **(الجمهورية العربية اليمنية)** في الشمال و **(جمهورية اليمن الديموقراطية)** في الجنوب.

وأصبحت الدولتان بموجب اتفاق الوحدة الموقع بينهما دولةً واحدة هي **(جمهورية اليمن)**، إلا أنّ تضارب المصالح السياسية وإرهاصات الصراع القديم والضغوط الإقليمية والغربية أطلت برأسها من جديد لتزكي نار الفتنة بين البلدين المتحدين. ونشبت الخلافات بين رئيس الدولة في الشمال **(على عبد الله صالح)** ونائبه في **الجنوب (علي سالم البِيض)**. وعلى ذلك المنوال ظلت المنطقة

العربية تغتلي بالأزمات الداخلية التي أشعلتها الجماعات السياسية المعارضة. فتضارب المصالح الغربية وأطماعها السياسية في منطقة الشمال الأفريقي بدت واضحةً من خلال التدخلات السياسية والتهديد، والتلويح باستخدام القوة كلما سنحت الفرصة.

وبالفعل تخطت الأمور مسألة التهديد الكلامي إلى استخدام القوة، حيثُ شنت الولايات المتحدة الأمريكية هجوماً عسكرياً على ليبيا واستخدمت فيه عدداً من قطع سلاح الطيران الأمريكي التابع لأسطولها العسكري الرابض في مياه البحر الأبيض المتوسط. وتدخلت الولايات المتحدة بقواتها العسكرية في الصومال مستغلةً نفوذها في منظمة الأمم المتحدة التي تمثل الشرعية الدولية. وضربت قواتها أبناء الصومال بالصواريخ رغماً عن ادِّعائِها بأنها جاءت لحفظ الأمن والنظام.

وبنفس الأسلوب كان تدخل الدول الغربية مستمراً طوال فترة الحرب الأهلية الدائرة في جنوب السودان. حيثُ ظلَّ الرسميون الغربيون يدخلون في مناطق القتال بجنوب السودان دون إذن السلطات الحكومية، بشكل احتجت عليه كثيراً حكومة السودان واعتبرته تعدياً سافراً على سيادتها وخرقاً للأعراف الدبلوماسية. وقد أدى ذلك إلى خلق أزمة سياسية بين السودان وبريطانيا بعد طرد

السفير البريطاني بالخرطوم (1993م) لاتمهم ه بالتدخل في شؤون البلاد الداخلية.

من رموز الاستقلال

لقد أفرزت حركات النضال العربي ضد المستعمرين رموزاً مضيئةً من البطولات الفدائية نشير إلى واحدة منها وهي المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد التي خلدت إسمها بين الثائرات ضد الاستعمار على نطاق العالم. حيث كانت نيران الثورة في الجزائر قد اندلعت مع إطلالة عام 1954م. ونالت البلاد استقلالها في عام 1962م بعد تضحيات نادرة شهدتها جميع الشوارع في مدن وقرى الجزائر.

كانت جميلة بوحيرد فتاةً جزائرية لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها وهي الشقيقة الوحيدة لخمسة أشقاء هم: نور الدين، والياس، وهادي، وعزيز، ونذير. وعُذبتْ جميلة وأشقاؤها أشد العذاب من رجال المظلات الفرنسيين الذين كانوا يُحكمون قبضتهم على الجزائر.

التحقت جميلة بجبهة التحرير الوطني الجزائرية عن طريق عمها مصطفي الذي قتله الفرنسيون في 11 مارس 1957م. وفي

يوم 26 أبريل عام 1957م قبضت جميلة وهي تحمل أوراقا مهمة موجهة من جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى ياسف السعدي وعلي بوانت وهما من الرموز النضالية في حرب التحرير. وكانت قوات الجيش الفرنسي تتابع كل التحركات، وفجأةً أطلقت عليها النار فأصابتها الرصاصة في كتفها وقبضت عليها.

وُضعت جميلة في الحبس وأُجرى معها تحقيق مكثف استمر سبعة عشر يوماً. كانت المعاملة أقسى من أن يتحملها جسدها الصغير. ولكنها تحملت أشد أصناف العذاب. ووسط التهديد بالتنكيل والبطش الذي واكب استجوابها قالت جميلة:

«إنّ الذين عذبوني هكذا لا يملكون أن يُذلوا الإنسان مادياً كما فعلوا في جسدي وروحياً كما فعلوا في نفوسهم».

أُدخلت جميلة بوحيرد إلى قاعة المحكمة بالجزائر في أيام11و12و13من يوليو عام 1957م. وقالت في المحكمة:

«أيها السادة إنني أعلم أنكم ستحكمون عليّ بالإعدام، لأنّ الذين تخدمونهم متعطشون إلى الدماء. وإذا كنتم قد عذبتموني بأقسى وأحط أنواع التعذيب وقتلتم إخوتي وأهلي بلا ذنب أو جريرة، فلا تنسوا أنكم بذلك إنما تقتلون تقاليد الحرية التي هي أول شعار من شعارات الثورة الفرنسية وتُلطخون شرف

فرنسا بالعار. ومع ذلك لن تستطيعوا أن تحولوا بين الجزائر وبين الحصول على استقلالها». حكمت المحكمة الفرنسية على جميلة بوحيرد بالإعدام. واهتز ضمير العالم لذلك الحكم واستنكرته معظم دول العالم حتى وجدت فرنسا نفسها مضطرةً إلى تخفيفه.

وبالفعل صدر في الثالث عشر من مارس 1958م قرار بتخفيف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. ثم أفرج عنها في 18 مارس عام 1962م بعد توقيع اتفاقية إيفان بين فرنسا والجزائر التي تقضي بوقف إطلاق النار بين البلدين، والتي أدت فيما بعد لخروج الاستعمار الفرنسي برمته من أرض الجزائر[55].

لقد استشهد الملايين من أبناء الأمة العربية في سبيل الدفاع عن الحريات. وبرزت رموزٌ قوية في بلاد الإسلام والعروبة منافحةً عن الأرض والعرض مثل: محمد أحمد المهدي، وعمر المختار، وعبد الله بن محمد تورشين الشهير بين العامة باسم عبد الله التعايشي، وأحمد عرابي، وسعد زغلول، وغيرهم وغيرهم من المناضلين. وبعد الحرب العالمية الأولى والتي انتهت في عام 1917م قسمت دول أوربا البلاد العربية فيما بين دولها الاستعمارية

---

[55] البرت الريحاني وفريق من الأساتذة (1955م) الموسوعة العربية، دار الريحاني للطباعة بيروت.

لاسيما بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وألمانيا. وشهدت هذه الفترة نمو الوعي السياسي بين أبناء الدول المغلوبة على أمرها وبينها أبناء العروبة والدول الإسلامية. حيثُ نشأت الكثير من القوى السياسية المناضلة التي برزت في مستقبل الأيام كأحزاب سياسية أو تنظيماتٍ لعبت أدواراً كبيرةً فيما بعد في رسم طريق الخلاص لأوطانها.

❖❖❖

الخاتمة

في خضم هذه المعمعة ظلت نيران الفتنة تتأجج بين المسلمين فيما بينهم، فما ينتهي صراعٌ حتى يبدأ صراعٌ جديد يصب بدوره في مسار التشتت والتمزق والانقسام بين المسلمين.

وأمامَ هذه التحديات لا يكونُ أمامَ الأمةِ الإسلامية إلا تقويةُ ذاتِها بالتمسك باتحادها القوي فيما بينها، ومناصرة بعضها بعضاً، وإدراك هذه الحقائق التي لم تعد خافيةً على أحد. وكل ذلك لا يتأتى إلا بالتمسك بالوحدة والمناصرة، والعودة إلى رحاب الدين بعقيدته السمحة وتعاليمه الأصيلة التي كانت سبب القوة والمنعة في سنوات الإسلام الأولى.

وليدرك الجميع أنَّ الواقع الذي يعيشُهُ المسلمون اليوم لا يؤدي إلا إلى تفكك الأمة، واستلابها ثقافياً، وروحياً، وفكرياً، بتنفيذ مخططات الاستعمار المرسومة لهدمها. ولذلك إذا أراد المسلمون أن يخرجوا من هذا القمقم المفروض عليهم فإنهم لا بد أن يتمسكوا بأهداب الدين القويم، وأن يطوروا نظرتهم للعالم من خلال المنظور الواقعي وليس منظور العواطف. كما عليهم أن يهبوا من ثُباتهم العميق وينموا ملكات أبنائهم الفكرية والعلمية في كل ما يتعلق بأمورهم الدينية والحياتية. وبذلك نستطيعُ تقويض مخططات

الاستعمار وخلق مستقبلٍ أفضل. وذلك لا يتأتى إلا بالالتزام بما يلي:

1/ على جميع الدول الإسلامية أن تتدارس ما يحاك بشعوبها من منطلق الحقائق وليس الأومهم التي يروج لها قادة الاستعمار الحديث.

2/ أن تسعى الأنظمةُ الإسلامية لفتح صفحات جديدة من التفاهم والتعاون فيما بينها، واضعةً في الاعتبار مصالح الأمة الإسلامية وكل المشاكل التي شابت علاقاتها في الماضي.

3/ لا بد من استقراء التاريخ الحديث الذي سقطت فيه دولة الأندلس، وتضعضعت فيه فلسطين، وتمزقت فيه هيبة المسلمين حتى يكون حافزاً لتنمية القوى ورسم الاستراتيجيات المستقبلية.

4/ يجب أن يُعاد النظر في مسألة استغلال الثروات الإسلامية، والتفكير في إقامة البدائل لمؤسسات التمويل الغربية حتى لا تكونَ

أموالُ المسلمين سبباً في إبادتِهِم بوضعِها في أيدي أعدائِهِم من المستعمرين القُدامَى والجدد.

5/ البحث عن أفضل السبل لإعادة الاحترام المتبادل بين الشعوب الإسلامية، وتشجيع اللقاءات المشتركة بين الشباب المسلم لاسيما الطلاب والمثقفين ليضعوا أيديهم في أيدي بعض ويتدارسوا أمر الخروج من هذا الواقع بخلق مُستقبلٍ أفضل للأمة.

6/ فتح قنوات التواصل والاتصال بين كل الدول الإسلامية براً وجواً وبحراً من أجل تذويب الحدود الجغرافية والنفسية بين هذه الشعوب.

7/ إقامة كيان سياسي جامع للدول الإسلامية بديلاً عن الكيانات التي فشلت في تحقيق أهدافها.

8/ الوقوف صفاً واحداً في مواجهة أي مؤامراتٍ خارجية تفتت كيان الأمة الواحدة، وتُذَكِر بقوله تعال في مُحكم تنزيلِهِ: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[56]، وقولِهِ تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ**

[56] قرآن كريم، سورة الأنبياء، الآية 92.

الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[57]. صدقَ اللهُ العظيم.

❖❖❖

المراجع والمصادر

القرآن الكريم:

- سورة الإسراء: الآية 53.
- سورة الأحزاب: الآية 70.
- سورة الجمعة: الآية 10.
- سورة الغاشية: الآية 21-22.

مؤلفات باللغة العربية

- أحمد محمد عطية، (1965م)، دفاع عن الزنوج، من الشرق والغرب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

[57] قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 120.

- الزبير سيف الإسلام، (1986م)، علم الإعلام والسياسات الإعلامية في العالم الثالث، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- عبد الحميد كشك، (1980م)، حديث من القلب، دار الشعب، القاهرة.
- عوض إبراهيم عوض، (2001م)، لغة الإذاعة، دار النشر، جامعة الخرطوم.
- عمارة نجيب، (1980م)، الإعلام في ضوء الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض.
- زين الدين بن أبي الفراج عبد الرحمن شهاب الدين، شرح الخمسين من جوامع الكلم، (بدون تاريخ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- حامد عبد الواحد، (1984م)، الإعلام في المجتمع الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، دار الصحافة الصحافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- سيد محمد ساداتي الشنقيطي، (1986م)، أصول الإعلام الإسلامي وأسسه، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع.

- فرج عبد القادر طه وآخرين، معجم علم النفس والتحليل النفسي، بدون تاريخ، طبعة دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- محمد خير رمضان يوسف، (1990م)، من خصائص الإعلام الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

- محمد كمال الدين إمام، (1983م)، النظرة الإسلامية للإعلام محاولة منهجية، الطبعة الثانية، دار البحوث العلمية، الكويت.

- محمود محمد قلندر، (1999م)، الاتصال الجماهيري النظريات والوسائل والنماذج، يونيفيزيون برس، كوالا لمبور.

- محي الدين عبد الحليم، (1984م)، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض.

- محي الدين عبد الحليم، (1990م)، الإعلام عن الإسلام في غير ديار الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، (1411 هـ)، تأليف نخبة من المفكرين والكتاب، الطبعة الأولى، الرياض.

- يوسف محي الدين أبو هلالة، (1408هـ)، الإعلام في ديار الإسلام بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض.

- البرت الريحاني وفريق من الأساتذة (1955م) الموسوعة العربية، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت.
- هربرت جورج ويلز (1967م) موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- مجلة عالم المعرفة، المجلد الثالث، بيروت، لبنان.
- مجلة عالم المعرفة، المجلد الثالث، بيروت، لبنان.
- موريس غورييه (1982م) العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.
- عبد المالك خليفة التميمي (1983م)، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- حسين جميل (1986م) حقوق الإنسان في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
- عبد الخالق عبد الله، (1989م) العالم المعاصر والصراعات الدولية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- صحيفة السودان الحديث، (يوليو 1993م) دار السودان الحديث للطباعة والنشر، الخرطوم.
- العالم العربي في القرن العشرين، سلسلة المعرفة.

- موريس غوريبه، (1982م)، العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- مجلة المجلة، العدد 634 - 7،1 / أبريل / 1992م، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، ص 18.
- البرت الريحاني وفريق من الأساتذة (1955م) الموسوعة العربية، دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت.

مراجع بالإنجليزية:

- Awad Ibrahim Awad, History & Evolution of the Mass Media, 1999, Univission
Press, Kuala Lumpur, Malaysia, page 141-146.
- Awad Ibrahim Awad. Communication Law and Ethics, 1999. Univission Press, K.L
- Barck, Oscar Theodore, Since 1900; a History of the United States in our Times, 5th ed., Macmillan Publishing Co., 1974 - John Bittner, Mass Communication Media: (An Introduction), 1989
- John Vivian, the Media of Mass Communication, 1997, Alyn and Bacon, USA
- Joseph Dominickhe, Dynamics of Mass Communication, 1995, MacGraw Hill
New Straits Times (May 1994) Kuala Lumpur
Agency, USA Info an Outline of American History, United States
- M. L. DeFleur and E. Dennis. Houghton Mifflin, Understanding Mass Communication, 1991
- Shirley Biagi, Media Impact, Wadsworth, 1996
- Tom Crone, Law and the Media, Third Edition, 1995, Oxford, London

المؤلف في سطور:

- الاسم: عوض إبراهيم عوض محمد
- سوداني، ولد بمدينة النهود، السودان
- متزوج، وأب لأربعة أولاد وبنت واحدة.
- يتحدث العربية+ الإنجليزية+ الملايوية
- مذيع، ومعد برامج، ومحرر، ومخرج.
- كاتب صحفي، وشاعر، ومؤلف، ومترجم، ومدرب.
- نال دراساته العليا والتخصصية بماليزيا، والولايات المتحدة، والسودان.
- بروفيسور بكلية الإعلام، جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، السودان.
- عميد كلية الإعلام بجامعة الوسيلة للعلوم والتكنولوجيا.
- مدير قناة الأمل التلفزيونية الفضائية.
- سفير النوايا الحسنة لمكافحة الدرن بالسودان لدى منظمة الصحة العالمية.
- عضو هيئة المستشارين لمجلس الوزراء ووزيري الإعلام والتجارة الخارجية.
- عضو دائرة علوم الاتصال بمعهد إمام جامعة الجزيرة.
- عضو مجلس الأمناء لجامعة غرب كردفان، وعشر منظمات إنسانية.
- عضو جائزة الشيخ البرعي برئاسة الجمهورية.
- نال درجة الأستاذ المتخصص في علوم الاتصال من جامعة أوهايو بالولايات المتحدة.
- نال درجة الدكتوراه الأولى في وسائل الاتصال واللغويات من جامعة الملايو بكوالالمبور.
- نال الدكتوراه الثانية في الإعلام، من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان.
- نال درجة الدكتوراه الثالثة في العلوم السياسة من جامعة الزعيم الأزهري.